

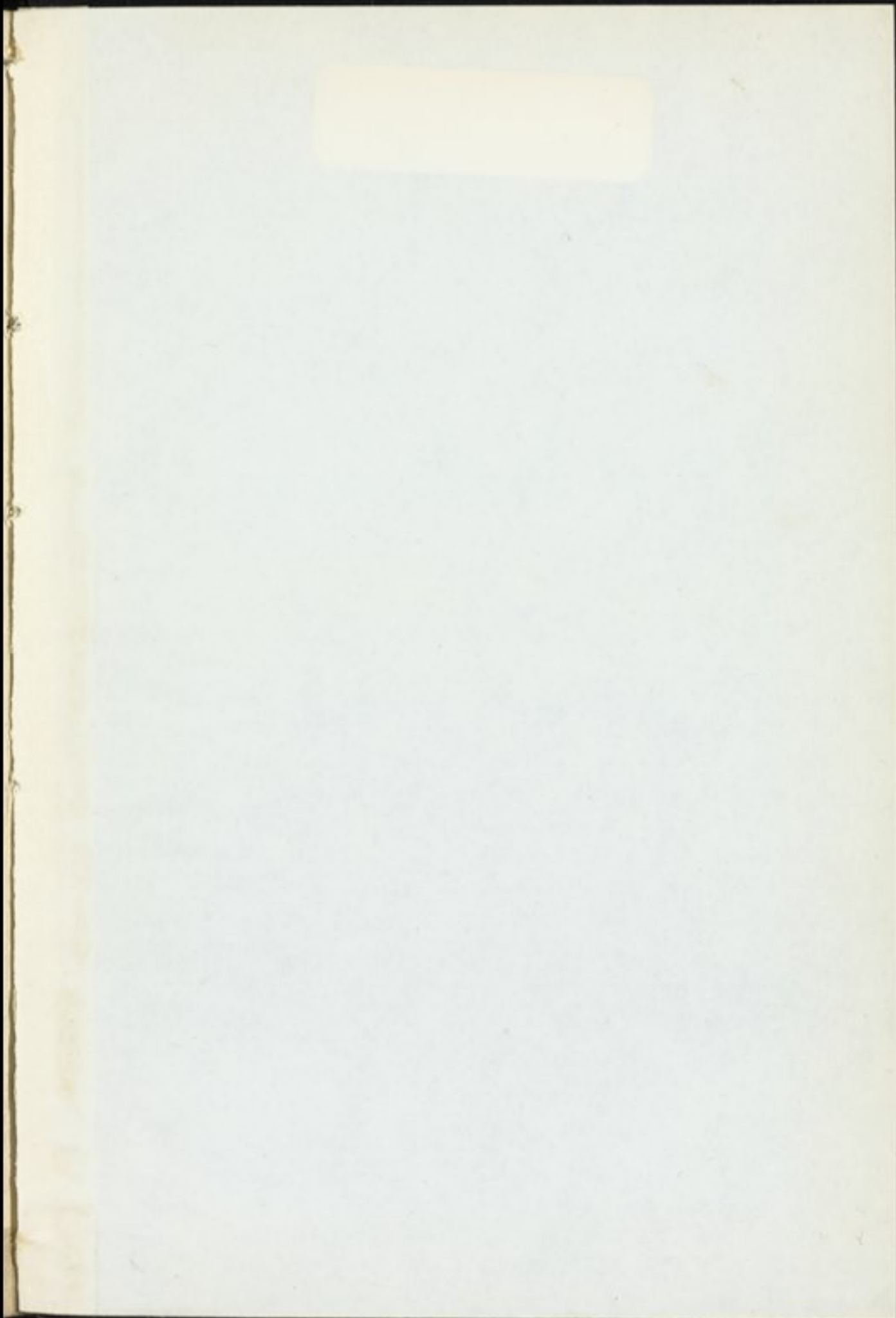
SHARIF

FI ZILAL AL-HURRIYAH

Princeton University Library



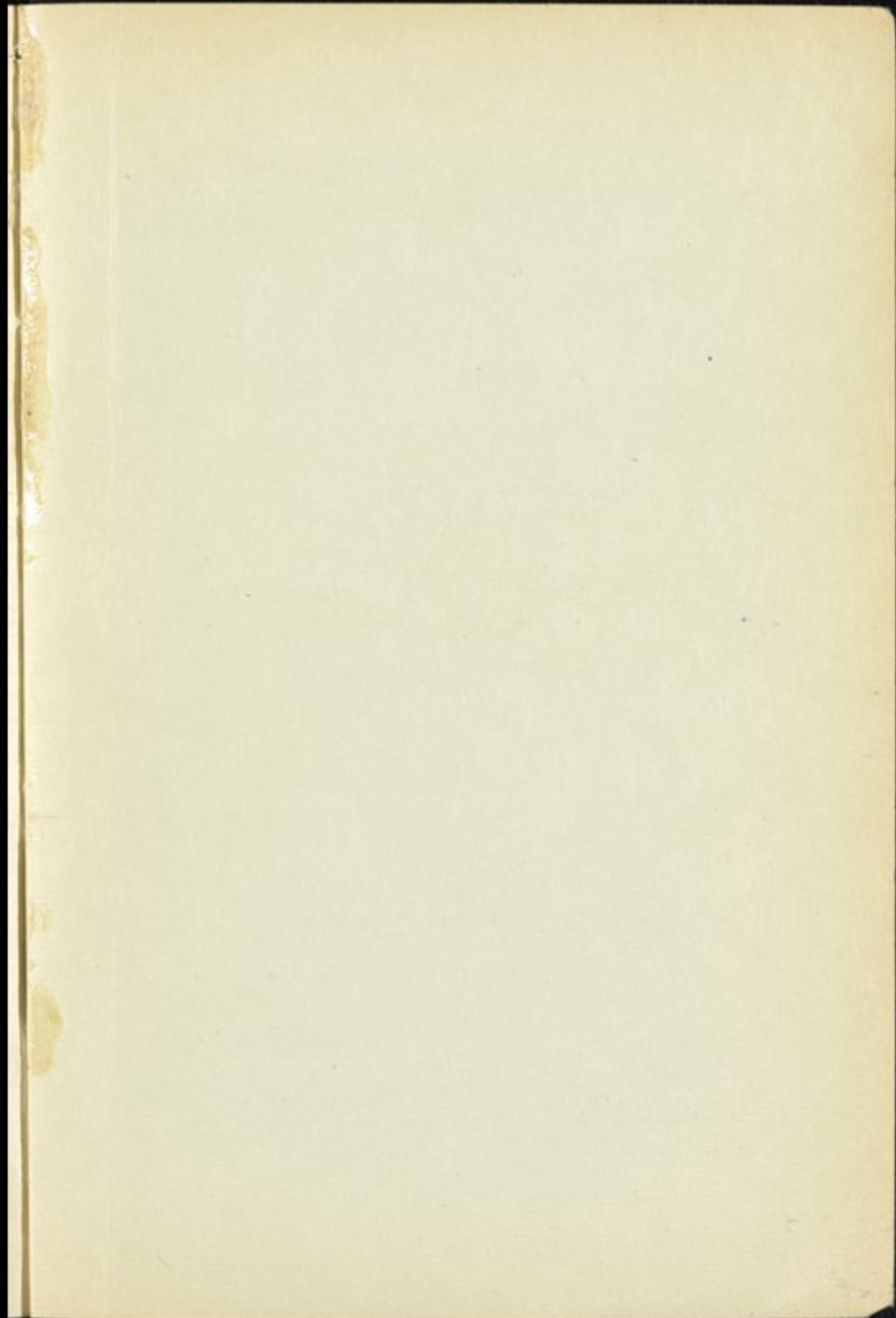
32101 074331826



الدكتور
محمد بدیع شریف

فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد عبد المنعم



Sharif, Muhammad Badi'

الدكتور
محمد بدیع شریف

تقدم الى الشعر الزيدى
الدكتور أحمد زكى الينادى
مع التحية
بدیع شریف المؤلف

Fi zilal al-hurriyah

فِي ظِلَالِ الْحُرِّيَّةِ

النابشر
دار الكتاب العربى بجببر
محمد جليل الينادى

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَبِهٖ نَسْتَعِیْنُ

كَلِمَاتٌ

في أحضان الحرية يتفتح الرأي ، مثلما تتفتح الزهرة
في ضحوة الشمس بللها الندى وداعها النسيم . وبين يديها
تندفع المواهبُ من مكانها تخرع وتبتدع لتنشئ مقومات
الأمة . والحريةُ تبعثُ العدلَ ، فإن العدل لا يبسط جناحيه
إلا في ظلالها ، وإذا نطق لسانُ العدل اعتدلت الموازين ،
فلا ترجح كفةٌ إلا إذا ثقل الراجح بعلمه وعقله وأدبه وخلقه
وكمال إنتاجه .

وهنا يفتح المحيطُ ذراعيه للموهوبين الذين يكونون
الجيلَ ، فينبت في هذا الجيل فردٌ يعرف معنى الجماعة ،
وجماعةٌ تعرف معنى الفرد ، وأحزاب تعرف معنى الأمة ،
وأمة تعرف معنى الأحزاب ، ويصبح التنافس والتزاحم على
الفضائل وبدائع التكوين ، وتتواءم أعمال المبدعين مثلما

2274

87566

334

تتواءم نغمات الموسيقى في القطعة الخالدة ، وهكذا يتسق
نظام المجتمع . فما أسعد الأمم التي تظلمها الحرية ويشيع
في أرجائها العدل ! .

إذا اختفت الحرية مات العدل ، وإذا مات العدل
اضطربت الموازين واختلت درجات المقاييس ، ونبتت
الجربزة في حقول الحقائق ، وصار القدم يسمى عبقريا
والجاهل عالما فيلسوفا ، والسارق حاذقا ماهرا ، والثرثار
خطيبا مفوها . ومعنى كل ذلك أن الحق يختنق ويتكلم
الباطل ، وإذا تكلم الباطل خاف البريء وأمن المسيء ،
وإذا أمن المسيء تواری الاطمئنان ، وإذا تواری الاطمئنان
كُنست مواهب الإبداع في مكانس الخوف وتواریت في
ظلمة الذلة . وصار الحر صيدا مباحا . ومتى تواری الإبداع
والإنشاء في أمة فأنذرهما بالتحلل من كل قيد ، والتفسخ
في كل ناحية .

إننا ننشد الحرية حتى لا نكون صيدا مباحا ، ونؤمن
بها كي نسمو عن عبادة الأصنام إلى عبادة الديان ، ونريدها

لنبدع في ظلالها ، فتعتدلُ أزمّةُ الحكم وتتسق مدارسُ
المجتمع في أحضان الأحزاب ، وبين يدي الجامعات ، وينشأ
الرجال المبدعون ، ويتوارى من الوجود أشباه الرجال ،
وتتغلب على المحن ونجتث عوسج الآراء المتطرفة المتشابكة
فنخرج بالأمة إلى ضاحية واضحة ، تتشعب فيها طرق
الحياة ...

[Faint, illegible handwriting]

حُرَيْشِنَا

تثور العواصف فيضطرب البحر ، وتصطنخ أمواجه ،
وتلطم وجوه الشاطئ ، ثم تعلو تارة وتهبط أخرى ، حتى
يَفْشَأُ البحرُ سورةَ العاصفة ، فيجري رهواً وتسير أمواجه
كما تشاء وتريدُ ؛ لا كما تشاء العواصف .

ويسمع الطير هَجَّهَجَةً ، فيضرب الريح ، ويطير في الجو ،
يصفق بجناحيه ، يتوجه حيث يشاء ، ويقع حيث يريد .
كذلك نحن ولدتنا أمهاتنا أحراراً ، ولن تستطيع قوة
في العالم ، ولا جبار من جبابرة الأرض أن يَسْلُبَنَا ما وَهَبَنَا
جبارُ السموات والأرض .

نشأنا في حضن الطبيعة كما نشأت الحرية معنا بين
يدي الكون ، واستقبلتنا باسمه حين تنشقنا هواء هذا
العالم ، واستقبلناه بأيدينا ، وتفتحت عيوننا بضياءه ، نفثاً

قوة الجبابة ، كما يَفْتَأُ البحرُ سورة العواصف ، ونلطم وجه
الظالم ، نطلب الفضاة كما يلطم الطائرُ وجه الريح يطلب
وُجُهَاتِ الجو ، ذلك لأن إرادتنا تريد أن تندفع للابداع ،
لأنها خلقت للابداع ، وتريد غرائزنا أن تسبر أسرار الكون
لهيء لهذه الإرادة مواطن التكوين والإنشاء .

ولن تستطيع الغرائز أن تسبُرَ أسرار الكون إذا
صَفَّدت بالقيود ، كما لا يستطيع النهر أن يجري إذا وقفت
في مجراه السدود .

فإذا تجمعت هذه الغرائز للوثبة ، وحالت دون سيرها
الأصفاد ، أرغمت الإرادة على العزم ، وانفجرت انفجار
البراكين تشقق حولها الأرض ، أو انفجار القنابل تدك
متون الجبال ، هكذا يسير الأحرار في الحياة ؛ يخضدون اليد
التي تمتد إلى أعناقهم لتخنقها ، ويخفون صوت الذي يريد
أن يخفي أصواتهم ، ويدوسون بأرجلهم صغار الناس الذين
يمنعون غرائزهم ، ويقفون في سبيل إرادتهم ليرقوا سلم الحياة
حيث تنتظرهم عظام الأمور .

إن بين الحرية والعبودية صراعا قديما ، فإن الطائر لا يرفُّ
بجناحه إلا إذا حطَّمَ قِشْرَ البيضة ، وإن الطفل لا يستقبل
فضاء العالم إلا إذا أسال الدم الأحمر .

كذلك نحن ، لا يمكننا أن نبـدع إلا إذا حطَّمتنا ،
ولا يمكننا أن نُحطِّمَ إلا إذا ضحينا ، ولا نضحى إلا إذا عزَّت
نفوسنا ، ولا عِزَّة إلا في ظلال الحرية ،

وَهَبَتْ إِرَادَةَ السماء سباعَ الطير الحياةَ ، وأعطتها
الجناحَ والمِخْلَبَ .

ووهبت الأسود الحياةَ ، فجهزتها بالناب والبُرْشُنْ .

ووهبتنا الحياةَ ، ووهبتنا معها العقل والقلب ، لتصرف
في هذه الطبيعة مانشاء ونختار . وفي تصرف العقل والقلب
القولُ الفصلُ في توجيه الحياةَ ، وتكوين نظام الاجتماع .
والحرية لا تبسُطُ جناحها إلا إذا نطق العقل ! ..

فإذا تحكَّم القلب ، ونطقت العاطفة لَعِبَتْ الشهوةُ
بالنفوس وصارت الحرية تتأرجح في صعود وهبوط ، وبرزت
غرائز اللذات تستظلُّ بالحراب والبنادق ، كما تستظل

كواسرُ الطير وضواري الوحوش بالمخالب والبرائن .
وإذا برزت غرائز اللذات ركذ العقل .
والعقل الراكد عبثٌ ذليل ، والحرية لا تنبعث من فم
العبد ، كما لا يُستنبطُ الماء من الصخر الصلد .
أنت أيتها الحرية هبة الإله لآدم ، وآدم هو الكائن الحي
الذي اختارته إرادةُ السماء ، ليكون خليفةً في الأرض ، يفتح
كنوزها ، ويفضح أسرارها .
وأنت والحياة طرفان متلازمان لا وجود لأحدهما
إلا بوجود الآخر ، ولكنك أنتِ الطرف الثمين . أنتِ أئمن
من الحياة ، ولا حياة إلا بك ! في ظلالك يمشى العاقلون
في طليعة الشعوب ، يَفْصِلُون في شئونها ، ويقررون مصير
حياتها ، ويملنون إرادتهم مع إرادات الأمم الحرة .
أنتِ فضاء العقل فيك يبدع وينشئ ، وأنتِ سجنُ
اللذات والشهوات . في فضائك يرْسف عبيد اللذة والشهوة
بالسلاسل ، ويمشون بالأصْفاد لأنهم لا يستحقون الحياة .
وفي فضائك صراع عنيف بين اللذة الزائلة واللذة الخالدة

صراع بين العاطفة الجامحة وبين العقل المُتَهَادِي .
أنت مقياس الشخصية الحرة المبدعة ، في ظلالك
صراحة القول ، وإيضاح الحقائق ، والعبيدُ لا يصمدون
للحقائق والصراحة .

اسمك السحري يثُل عروش الجبابرة ، ويفتح أحضانَ
الطبيعة فتبتسم الحياة ، ويسود الأمن ، وَتَنْشُرُ الثقة ذوائبها ،
وتمشى المواهب المنشئة غُدُوا ورواحا ، تنهل من مناهل
الكون ، تجددُ نشاط الحياة وتنشئ الأجيال .

لِسِنَا صَيْدًا مُبَاحًا

أَجْمَعَتْ شَرَائِعَ الْأُمَمِ الْمُتَحَضِّرَةِ عَلَى الْقَوْلِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ
سَيِّدَ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَنْ يَكُونَ صَيْدًا مُبَاحًا ، وَإِنَّهُ إِذَا كُتِبَ
فِي سَجَلِ الْأُمَّةِ ، وَأَصْبَحَ مُوَطِنَ الْأُمَّةِ مُوَطِنَهُ فِي سَمَائِهِ وَمَائِهِ
وَغَبْرَائِهِ ، عَصَمَ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعَرْضَهُ .

وَزَادَتْ الْأُمَمَ عَلَى هَذَا أَنَّهَا تَقِيهِ عَوَادِي الزَّمَنِ مِنَ
الْفَاقَةِ وَالْجَهْلِ وَالْمَرَضِ ، وَتَكْفُلُهُ فِي عَيْشِ الْأُسْرَةِ وَعِزِّ الْأَبَدِ .
إِنَّهَا لَا تُجْلِسُهُ عَلَى الْأَرَائِكِ وَالْفُرُشِ الْمَرْفُوعَةِ ، أَوْ تَنْزِلُ
عَلَيْهِ مَائِدَةً ، أَوْ تَنْشُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ بَدْرَ الْأَمْوَالِ ، وَلَكِنَّهَا تَفْتَحُ
لِدِمَاغِهِ وَعَضْلِهِ سَهُولَ الْوَطَنِ وَحُزْنَ وَنَهْ وَهَوَاءَهُ وَمَاءَهُ وَمَعَاهِدَ
الْعِلْمِ وَالصَّنَاعَةِ ، تَعِينُهُ عَلَى إِتْجَاعِ الْأَنْفَعِ وَتَهْيِئَهُ لَهُ وَسَائِلَ
هَذَا الْإِتْجَاعِ .

وَأَفْرَادَ الْأُمَّةِ كُلِّهِمْ فِي ذَلِكَ سَوَاسِيَةً كَأَسْنَانَ الْمَشْطِ ،

لافضل لأحد على أحد إلا بالإنتاج والإبداع ، وهذا هو معنى
تكافؤ « الفرص » الذي تتسابق على تنفيذه أمم العالمين :
القديم والحديث لإنشاء جيل جديد يعرف الإنسانية العليا ،
 ويفهم سر وجوده في هذا العالم .

الأمة التي لا تعرف الشذوذ والطوارئ يعرف فيها
الفرد ثمن الحياة ومعنى الوطن . والأمة التي تعمل بالشذوذ
وتحكم بالطوارئ يعصف بالفرد منها تقرير من جاسوس
مأفون يرفعه إلى السلطات ، يصبغه تارة أحمر وأخرى أسود
وتارة رماديا ، فيلقيه في غياهب السجن تتلقفه أسواط الزبانية ،
ويلقيه الوزير الطاغية في المعتقل ، لا يرضى قلب الأم الشكلى ،
ولا قلب الأب النادب ، ولا ثغاء الأطفال الضعاف ، يتركهم
يتضورون جوعا ، ويموتون كما تموت فيران المساجد .

يُتَهَمُ الأب ، فيُحَكَّم على الزوجة والأم والأب والأبناء ،
وتسحق في هذا الحكم شرائع الأرض والسماء .
يمشى الموظف الصغير هادىء البال مطمئن الضمير ،
يروح وينغدو على أطفاله ، يصارع أمواج الحياة ، يضع يده

اليمنى على لقمة الخبز السوداء ، ويده اليسرى على قطعة
الكساء ، ليملاً الجوف الطاوى ويكسو الجسد العارى ،
وبجرة قلم من قلم الوزير الخطير المُدَلِّ بقانونه ، يفصل هذا
المنكود ، ويقع الحكيم على الأسرة أجمعها ، فتقع الأسرة
المنكودة فى حيرة الفاجعة ، لاتسففها الدمة ، ولا تنقذها
الأنة ؛ وتصبح هذه الجماعة بين أنياب الدهر ، لا يستندون إلى
ضمان يكفل حياتهم ، ولا إلى جمعية تُقَوِّمُ أَوْدَهُمْ وتسد رمقهم ،
ولا إلى نظام ينتظم جماعتهم ؛ فتبدو نواجذ الشر وتطلع غرائز
الإحْنِ ويستولى اليأس ، واليأس كافر لا يؤمن بأمة ولا يعرف
وطنا . يمشى هذا الشذوذ يجر ثوب خيلائه ، يهتك بيوت
الأسر ويستبيح الأموال والقوت ، فتقلب الخنطة الصفراء
المنهبة شعيراً أدكن ، والطحين الناعم جصاً خشنا ، وأنثى
البقر فخلاً ذكراً ، ثم تترك هذه الخيرات بلادنا سافرة لاتقفها
الحدود ، ولا تحول دون خروجها قوة ، وتصل إلى حيث
يشاء الشذوذ ، وأنف الجياع والحفاة والعراة راغم^(١) .

(١) تشير هذه العبارة إلى تهريب قوت الأمة إلى بلاد العدو بأسماء مستعارة .

ويتبخر سوط الطوارئ في الشوارع والميادين ،
فتكون أصوات الحرية عنده كلاماً محرماً ، وتوضيح الحقائق
لفظاً وشغباً ، وإجماع الكتّاب على الرأي الصحيح إجماعاً
على الفاسد .

وإنه هو المنقذ وهم المعتبرون ، وهو المصلح وهم المفسدون
يبعث عسسه في الهزيع الأخير من الليل ، يروعون العالم
بين دفاتره ومحابره ، والطالب في مأمنه ، والرجل بين حضن
أولاده وزوجه ، ويسدد رصاصه إلى الرؤوس فتساقط الحياة
على غلالة الحرية الحمراء تساقط العصافير برصاص الصياد على
الرمضاء أعوزها الماء

هكذا عشى الشذوذ والطورى في البلد السهل يداً بيد ،
فلا يخلص فيه عزيز من البلاء ، ولا ينفع الذليل فيه النجاء .
وإذا مشى الشذوذ في بلد خثرت النفوس ، وإذا خثرت
النفوس انفجرت الفوضى ، ونشأ فريقان لا توسط بينهما :
فريق يَحْتَجِنُ المالَ والجاه والقوة أينما توجهه يسير ركاب
الحظ معه . يقول للباطل كن حقاً . فيكون ، ويقول للحق

عُدُّ باطلا فيعود ، لا تضبطه الشرائع ولا تحول دون مطامعه
الحدود ، التهريب حق مشروع في شريعته ، والرشوة قربان
وفدية لكبريائه ومكائنه ، واستباحة الأموال والدماء
والأعراض صيد مباح في نظمه وملته ، وفريق آخر حائر
مضطرب ، يقلب طرفه في الوجوه فيرى فيها أنياب الطمع
وتغضن الجشع ، وكسب العيش تتلوى طرقه وتتشعب
شعابه . . .

كلامه مردود ورزقه مقطوع أو محدود . ليس له في الوطن
شبر تقف رجله عليه ، ولا ملجأ يأوى أطفاله إليه . حقه
مضاع وماله إن كان له مال مستباح ، ودمه إن أريق ليس له
مطالب ، وعرضه إن نهش ليس له رادع ، يبعده الشذوذ عن
مكائنه وإن كان عنده علم الأرض والسماء ، ويضع في مكانه
آخر وإن كان يتخبط في الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء .

هنا يقف المرء حائراً يقلب طرفه تارة فوق سطح
الأرض وأخرى يرفعه إلى السماء ، ثم يهز رأسه وكتفه
ويضرب يديه ويقول : لاحول ولا قوة إلا بالله : ربنا

ما لهؤلاء أضلونا السبيلا؟؟ متى يقف هذا الشذوذ عند حدوده؟ ..

متى يعصم المرء عرضه وماله ودمه؟ متى يضمن العيش؟
لقد أفسد علينا هذا الشذوذ مجتمعنا وغير طباعنا وأخلاقنا ..
العدل ، العدل .. المحاكم ، المحاكم .

لا يفصل موظف برأى عابر ، ولا يسجن شخص
بأهواء القوة ، ولا يفتصب حق بسوط الطوارئ ولا يستباح
بسيف الطاغوت . إننا نريد أن يكون للمحاكم وحدها
القول الفصل ! .

إننا نريد أن نمسك بتلابيب الشرائع والقوانين ، إذا
أعوزتنا القوة لتتخلص من سوط الظلم .

نريد أن نقول للظالم « إن في العاصمة قضاة . كما قالت
المرأة العجوز حين هم فردريك الكبير أن يأخذ رجاها فلم
تقبل وقالت له : « إن في برلين قضاة » .
لا نريد أن نكون صيداً مباحاً .

محمد ﷺ
يعلمنا الحُرِّيَّة

ها هو ذا الفلك يدور دورته ، وها هو ذا ركب العالم
الإسلامي يقف بُرِّيَّةً ليعيد الذكرى فتنصت الأرض والسماء
حين يفتح الخيال لا بَدْيَه فتمر سببية المشاهد تعرض ابن عبد الله
واقفاً بين صحبه يَصْدَعُ بما يُؤمِر ، وصوته العظيم يملأ المسامع
ويسير على متن الأثير إلى أرجاء العالم ليملاه إيماناً وإخلاصاً
وعدلاً ومساواة ، وهنا تنيه الجزيرة العربية على العالم وتختال
مكة فتقول للأمم : « أيها الناس من هذه الرِّبْوَةِ انبعث صوتُ
الإيمان ، ومن هذه الربوة أَشْرَبْنَا القلوب بالشرف والعزة ،
وزفعنا الرءوس بالحِمْيَةَ وَالْأَنْفَةَ ، ومن هذه الربوة ، بعثناها
شريعة وضاعة تنير القلوب ، وتوقظ العزائم من مكانها ،
لتنمرد على الجور والعبودية ، ومن هنا نقذف بالحق على الباطل
فيدمغه فإذا هو زاهق .

كانت أمة العرب ، لها منظومها ومنثورها ، فيضان
على السنة شعرائها وخطبائها ، ولها صناديدها وأبطالها
في ميادين حروبها وأسواقها . تتفاخر فيها بقبائلها وبطونها ،
ولها علماءؤها في علوم النجوم والأنواء ومهاب الرياح والكهانة
والعيافة والقيافة والزجر والفراسة ، تتقوى بالعشير وتعز
بالعشيرة ، غير أنه لا يحجمها ناظم سياسي عام ، ولا يربطها
رابط اجتماعي شامل ، ولا يوجهها موجة ديني كامل .
والأمم في نظمها الفطرية وعلومها الابتدائية مثلها مثل
الشباب يكون مشبوب الإحساس قوى الشعور ، يترسم
خطا الخيال ، فكان خيالها يصور لها آلهتها في الكوكب
المضىء والحجر الصلد . فكانت تجثوركبها أمام مجاثم الأصنام
وتسير أحلامها وراء الأوهام ؛ وفي هذا الالتباس الرابك
والغموض المظلم ، حيث عيونها متعلقة بالأفلاك وأجسامها
مرتبطة بالمدّر والحجر . كان بين جنوبها قلوب تفيض
بالشعور المطرز بالنبل ، وصفاء الطبع الذي مظهره شعرهم
وثرهم ، ولكن كان يحف ذلك كله العزة بالجاهلية الأولى

والشعورُ بالفرديّة ، وإيثارُ العشيرة المطلق فطفقت تُقلِّبُ
وجْهها في السماء والأرض ، تُنشدُ المكوّنَ الأوّل ،
وتستشرفُ عيونها للظلم الرامح .

شَاءتِ الإرادة العلياً أن يكون سليل قريش هو المجتبي
لتبديد هذه الحيرة ، والموجهة الأوّل لهذه الأمة فأعطته
مواهب التوجيه وأحاطته بالفصاحة والحكمة ، المتدثرة
بالجلال والروعة .

فتحت العرب عيونها وآذانها ترى فتى قريش واقفاً على
نَشْرٍ من وهاد مكة ، يقلب بصره في السماء ، ويفتش بين سمع
الأرض وبصرها عن عشيرته الأقربين ويقول : هاأنذا هو
الرائد الأوّل الذي تنشدونه ، وهاأنذا المبدد الأوّل لهذه الحيرة
التي أخذت عليكم أسماعكم وأبصاركم « أيها الناس إن الرائد
لا يكذبُ أهله ، وَاللَّهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ مَا كَذَبْتُكُمْ
وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ مَا غَرَرْتُكُمْ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِنِّي أَرْسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَقًّا وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ
رُكَا تَنَامُونَ ، وَلَتُبْعُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ وَتُجْرُونَ بِالْإِحْسَانِ

إِحْسَانًا. وَبِالشَّرِّ شَرًّا وَإِنهَا لِلْجَنَّةِ أَبَدًا أَوْ النَّارِ أَبَدًا وَإِنكُمْ
لَأَوَّلَ مَنْ أُنذِرَ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

كانت هذه الصيحة الحجر الأول في بناء ذلك المجد العظيم
الخالد، واستطاع محمد في هذه القولة الأولى أن يبعث الثقة
في نفوس الأمة، والثقة إذا ربصت في مراتب القلوب تحقق
الأمل والاطمئنان؛ وهما يبعثان الشجاعة، والشجاعة تبعث البذل
والتضحية، والبذل والتضحية يبعثان الإخاء العام والحب العام،
وهنا تموت الفردية والأثرة للعشيرة. ويعود الإيثار للأمة؛
العقائد في الأمم تهيئها الفطرة الأولى. أو يبلغها المصلح
المرشد لتنير القلوب والأبصار، ثم تظل هذه العقيدة تهدي
من اتبع، حتى تقف بها القافلة بين عقول أخرى، لا تجد
في هذه العقيدة ما ينفذ رغباتها، فتبتدع وتضيف، وتؤلف
وتجمع حولها مثلما تجمع الطبيعة من الدغل والدخيل
والحشرات حول الخيلة الفيناء فتشوه جمالها وتطمس حسنها،
فتعقد العقيدة وتستعصي مسالكها، ويحل فيها الارتباك
بعد الثبات، والشك بعد اليقين. ولكن شتان بين الجنان

الذي يصل إلى الخيلة بالتشذيب واقتلاع العوسج ، وبين المصلح
الذي يريد أن يحرر قاعدة أو يُعَبِّدَ مسلكا ، فإن الدغل إذا
إذا أشبَ فإنما يَأشَبُ بأغصان الشجر ، ولكن العقيدة تخرج
بالدم ، وترتبط بالقلب ، وتتوشج بالعقل ، فلا تنزع إلا مع
الروح ، ولا تذهب إلا بتغير العقل .

اطمأنت الأمة للرائد الأول الذي أشعرها بثقة الوحدة ،
ولكنها رُوِّعَت كما ترزع الأوابد هاجمها الأسدُ الخادر
حين علمت أن محمداً يريد أن يضع لهذه الفوضى الدينية
ناظماً تجتمع حوله الأمة في صعيد واحد . فبعثت إليه عريفاً
ولكنه عاد من سحر العبقرية ، وبيان النبوة ، واثقاً مطمئناً ،
وهو يقول : « والله لقد سمعت قولاً ما سمعتُ مثله قط ،
والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر . يا معشر قريش
أطيعوني فاجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وما هو فيه فوالله
ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ .

فكان لهذه التعبئة النفسية ولهذا التوجيه الديني

أن طفق الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وشرع أتباع محمد يَحْفُونَ بالعبقرية والرائد الأول .

نجح محمد في هذه التعبئة النفسية ، فكان مظهر ذلك أن تحول اتجاه الشعر العربي الذي هو ثروة الأمة ومادتها في الإشادة بذكر العشيرة إلى الإشادة بذكر الأمة . وشرع الشاعر بدلا من أن يتغنى بذكر قبيلته يذُبُّ ويدافع عن دين النبوة الجديدة . ونجح ابن عبد الله في التوجيه الديني ، فكفر العاكفون باللاتِ والعزى وَمَنَاة الثالثة الأخرى .

تفتحت أسارير النبي لهذا النجیح الباهر ، وقال قد آن الأوان أن تحطم هذه الأصنام ، وأن تُبدد تلك الأوهام ، وأن ترتبط وحدة هذه القلوب بوحدة الملك الديان ، وأن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » . هكذا تمت لمحمد عليه السلام المرحلة الأولى من مراحل الرسالة . تَخْرُجُ الزعامة من وادى عبقر محوطة بالحزم والصبر والشجاعة ، والحلم والكرم والعفو ، ولين الجانب والصدق والوفاء والحب ، وحادّة البصر والفِراسة وعِظَمِ الهمة .

فإذا أرادت أن تسلك مسالك المجد مشّت وأفقها أوسع
من حدود ذاتها ، لأنها هي وحدها تنظر إلى السماء والأرض
والحياة منظومة في حلقة مفرغة .

وأول ما تمحو من ألقاظ معاجمها كلمة « المستحيل » ،
لأنها هي وحدها تعرف أنها تعيش في عالم الإمكان ، وتنصب
من إرادتها حاكماً عدلاً على أعمالها ، فتشقُّ طريقها إلى قلوب
الأتباع . فيجمعون على حبها ، وعلى الولاء والإخلاص لمبادئها .

قطعت عبقرية محمد هذا الطريق الوعر ، وطفقت ترتفع
حتى وصلت إلى ذروة الجبل ، فوقفت على هذه الذروة تبسط
صفحة الحقائق الكامنة في الأمة التي كانت تسترها الأوهام ،
وفضحت مبطون الحياة في التبشير والإنذار ، أنذرت فزهدت ،
وبشّرت فحبّبت ، فبرزت تلك المواهب الكامنة في قوى
الشباب ، وتجارب الكهول واندفعت مثلما تندفع كتائبُ
الجيوش ، هذه تفتح أسوار المدن وتلك تفتح مغاليق الحياة .
دار المؤمنون الصادقون بمحمد كما تدور الهالة بالقمر ،

فكان مثل الاثنين مثل الأب المكتمل ، يرى روحه في أعمال
أولاده ، وتنطبع على أساريرهم ، وهم يرون أرواحهم ترفرف
بأجنحتها إلى العلو كلما سمعت روح هذا الأب المكتمل .
هكذا انسكبت روح محمد في جوانح الرّاعيل الأوّل
من صحبه الميامين ، فالحزم يُنطق أبا بكر حين ودع محمد هذه
الدنيا فيقول :

« أيها الناسُ مَنْ كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ،
ومن كان يعبد اللهَ فإن اللهَ حيٌّ لا يموت ، أيها الناس إن كثير
أعداؤكم وقلّ عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟؟
والله ليظهرنّ هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون .
أيها الناس والله لو أفردت في جمعكم لجاهدتهم في الله
حق جهاده حتى أبلغ من نفسي عذراً أو أقتل مقتلاً ، والله
لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه واستعنت بالله إنه خير معين .

والعدلُ والتنظيمُ والحبُّ وسدادُ الرأي ، كل أولئك
يفيضُ في روح أبي حفصٍ عمر ، وإذا به يحوط الأمة كما

يحوط قلب الأم الرئوم وليدها ، فكان إذا رأى الشيخَ
العاجز تمتديده من الفقر دَفَع به إلى بيت المال وقال :
أعينوه فإننا لا نريد أن نكون قد استثمرنا شبابنا وخذلناه
عند الهرم .

وكتب إلى الأمصار : « الله الله في الرعية ، لا تستعبدوهم
متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

وإذا بالشجاعة في قلب أبي الحسن على تربض كما يربض
الأسد الخادر ، وإذا بها تفيضُ على لسانه حين يرمى بولده
في ميدان الحرب ويقول له : « تزول الجبال ولا تزل ، عَضَّ
على ناجدك ، أغر الله مججمتك ، تد في الأرض قدمك ،
ارم ببصرك أقصى القوم ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » .

وإذا بعثمان بن عفان يقفُ في واقعة تبوك فيتفضل بألف
جمل وناقة ، ويخرج عن ماله وولده في سبيل دين الله .
وقف محمد وقفته الأخيرة ، يتلو عليهم آيات الله :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

اطمأن محمد لهذا النجاح فنادى بأعلى صوته :
« أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه » .

هكذا عبأ محمد قومه بكتائب المثل العليا ، ثم رماهم في وجه الدهر يُنشئون ويكونون ، فلأت دمشق بيني أمية فم الزمان ، وملأت بغداد بيني العباس مسامع الدهر ، وتاهت روابي الأندلس وخمائلها على العالم .

محمد ﷺ
يحطم أصنام الأستعباد

يفتح التاريخ في كل عام صحائف، القرن السادس ليغرض
حوادث الإنشاء والتكوين ثم ييسط الخيال جناحيه، فيرتفع
بنا عاليا يستشرف جموع الأنبياء وكتائب الأبطال، ويشير
بإصبعه إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم واقفا على ثغور
مكة يقول :

يا بن الوليد أدخل مكة من أسفلها ولا تقاتل أهلها ،
وألصق أنوف الأصنام بالرغام ، كي يُحْتَمَّ عَوْسَجُ العبودية
من مجامع الأضغان ، فينبذ القوم شِرْكَ الأرض وعبوديتها ،
ويرتفعوا معنا إلى إيمان السماء ، وتنطلق النفوس إلى فضاء
الحرية . فإن سلاسل العبودية إذا تكسرت تحررت النفوس
وإذا تحررت النفوس تنزه الفكر ، وإذا تنزه الفكر شرع
يستشرف خطط الإبداع ، وإذا بانَّت خطط الإبداع ظهرت

المواهب الكامنة ، وإذا ظهرت المواهب الكامنة تحدت
قِيمُ الرجال .

هؤلاء الأنبياء المصلحون تجهزهم الإرادةُ العليا بنفوس
نافذة تستكشف ما وراء الغيب ، وتصل إلى قرارة النفوس
فتكسر الأغلال والسلاسل التي قيدتها .

إنهم يقفون على نشزٍ من الأرض يرقبون كيف تسير
أراعيلُ الأمة ، وتموج جماعاتها وأفرادها ، فيعرفون الرعيل
الذي يمشى وئيدا كأنه يحمل جندلا أو حديدا ، ويرون
الرعيل الذي يمشى خبيبا والرعيل الذي يركض ركضا ، فيهمزون
الوئيد ويدفعون الخبب فتركض الأمة كلها سراعا ، وتكتب
كتائبها لترحف إلى المجد من جميع نواحيه .

إن لتحطيم الأصنام في رسالة محمد معنى ساميا ولتوحيد
الإله معنى أسمى ، تبعثه الرسل الذين يريدون أن يخلقوا الأمم
ويوجدوا شعورها ، فإن نفوس الأمم إذا ضحلت التصقت
أجسامها بالرغام ، وتاهت أحلامها بين جذران الأصنام ولاذت
أسرابها في ظلال القبور ، ونشأ المشعبذون والدجالون الذين

يأكلون الشُّحْتَ بظلال هذه النفوس ويسمون رُغَاءَ قُطْعَانِ
هذه النفوس بالرأى العام ، كما تسميهم هذه القطعان بقيادة
الرأى العام وبين هاتين التسميتين المجرمتين تضيع حقيقة
الأمة . وتختفي كلمة « نحن » من الوجود . وتبرز مكانها كلمة
« أنا » في أنانية مطلقة وأثرة لا حدود لها ، ثم تمن هذه
الأنانية في غلوائها حتى تتسلط على الحواس وتصبح جزءاً من
الإرادة ، فإذا وصلت الأمة إلى هذه الحدود ارتبكت
موازينها ، واختلت مقاييسها ، وأصبحت الرذيلة جزءاً من
عقيدها ، وتحولت إلى عادات تأكل وتشرب بها ، وتشرع
الأمة في هذا الطور تصارع شياطين الصدق ، وهنا يتقدم
الباطل والإفساد ويقولان : لنا كل شيء في هذا الوجود .
فتحل الثرثرة مكان القول الفصل والوقاحة مكان الشجاعة ،
والخيلاء والتكبر مكان التواضع . وَتَتَيَّهُ أَحْلَامُ الْأُمَّةِ تِيهِ حِلْمُ
السُّكْرَانِ فتموج قطعانها بعضها في بعض ، حتى تبعث إليها
السماء نسمة من روح الله ، فينبت في فضاءها مصلح أو مرشد
يَهْزُ أَحْلَامَهَا وَيُرِدُ إِلَيْهَا عَقْلَهَا ، أو تنفعها أيام ذكرى مبدعها

ومكونها ، وتعرض عليها مشاهد المآثر والأعجاز لتهمس في
في أذنها خطط الإبداع والتكوين . وهذه الذكرى هي
ذكرى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتجدد فيها مجد
تاريخنا كلما مر بنا يوم ميلاده .

حطم محمد أصنام مكة فنبئت أجنحة الفضيلة وأخذت
ترف على وهاد مكة وبطاحها ، وشقت الإنسانية العليا طريقها
وأصبح بصر الناظر من تلامذة محمد حديدا وقلبه مرهفا ،
يشعر بشعور الجحفل الذي يمشى معه ، يهتف بأفراحه
وينقبض لآلامه ويقوى بقوته ، وطفقت النفوس تهتف
بنشيد محمد صلى الله عليه وسلم : « إلى أعلى عليين ، إلى الأبرار
والصديقين ، إلى الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون ،
إلى هذا الغذاء السماوي » الذي يفتح العقول ويوسع فضاء
الخيال للإبداع والتكوين .

ثم تلتفت هذه النفوس النشوى . فتسمع أسنتها تنشد
نشيد الإيثار والقوة والإبداع ، وإذا هي قوة تفرض على
الفلك أن يدور حولها ، وعلى التاريخ أن يكتب لها ما تريد .

إذا أَلْقَتُ العبودية عَصَاهَا فِي أمة غَمِيَّتْ هذه الأمة
عن خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وسارت في حياتها كما تَسِيرُ قُطْعَانِ
الضَّانِ ، لا تَسْمَعُ إِلَّا رَيْنَ جَرَسِ الكَيْشِ الأولِ ، عَيْنُهَا
فِي الأَرْضِ وَفَمُّهَا فِي مَنَابِتِ صِغَارِ الحَشَائِشِ ، وَعَصَا المُسْتَعْبِدِ
فوقَ كَتِفِهِ يَهْشُ بِهَا عَلَيَّهَا كَمَا رَأَى انْحِرَافًا عن الخُطَّةِ
المَرْسُومَةِ لَهَا فِي حُدُودِ رَعِيَّهَا .

إذا أَلْقَتُ العبودية عَصَاهَا فِي أمة صَدِثَتْ أَفْكَارُهَا كَمَا
يَصْدَأُ الحَدِيدُ فِي المَكَانِ الرَطْبِ ، وَرَانَ عَلَى قُلُوبِهَا ، وَخَمَدَتْ
جَذْوَةُ الفِكرِ ، وَبَرَدَ إِحْسَاسُهَا وَشَعُورُهَا وَمَاتَ ضَمِيرُهَا
وَتَبَدَّلَتْ قُوَى العَقْلِ فِيهَا بَغْرَائِزَ البَطْنِ ، وَعَادَتْ حَرَكَاتُهَا
انْعِكَاسِيَّةً وَأَصْبَحَ التَّكَالِبُ فِيهَا عَلَى إِشْبَاعِ الغَرَائِزِ وَطَلَعَتْ
رُءُوسُ الأَنَانِيَّةِ ، وَبَرَزَتْ الفِرْدِيَّةُ الكَلْبِيَّةُ تَهْمِشُ أَمْوَالَ
النَّاسِ وَأَعْرَاضَهُمْ .

هنا ينفع المصلح المرشد ، وهنا تنفع الذكري ، ذكرى
الأعجاب ، وهنا يطلق الخيال جناحيه فيرى روح محمد صلى الله
عليه وسلم على نَشْرٍ من الأَرْضِ تقول : إِيَّهَا القَائِدُ ، أُمَّتُهُ

الرائدُ قومه ، حَطَّمُ قيود العبودية تفتتح لك أبواب الرشاد ،
واجعل من نفسك قوة تجتمع حولك القوى ، واصدع بالأمر
مؤمننا تسمع نداءك الآذان ، ونخَلَّ عن الأثرة يتقدم إليك
الإيثار ، واصعد بنفسك إلى الذرى يَطِرُ وراءك القومُ بأجنحة
الفضيلة . ازهد في العظمة مُتَمَلِّ على التاريخ صحائف الإكبار
والإجلال ، حرر نفسك من أغلال العبودية فإن من أنعم
النعم على المرء أن يكون حُرًّا . إن المرشد لن يستطيع أن
يصدق أهله إلا إذا كان مثلاً أعلى ونمطاً للإنسان الكامل ،
وإنه لن يستطيع أن يطلب الإيثار ، والطمع والأثرة يشتبكان
في مجامع أضغانه ، إنه لن يقدر أن يطلب من الناس أن
يصدقوه والكذب ممسك بخناق ضميره . إنه لن يقدر أن
يفرض على الناس إكباره وإجلاله ونفسه تنيه في خيلائها
وتسدر في غلوائها .

إن رعيلا يمشى رواده وطلائمه بالشعوذة والثرثرة
واستغلال السذج وجمع الحطام وأكل السحت رعيلا
يمشى إلى واد سحيق . وكل أمة تمشى وراء مثل هذا

الرغيل أمة تخطو سراعا إلى الهاوية .
إن المبدعين تهبهم القدرة الإلهية قلوبا يشع منها نور
ينفذ إلى قلوب الأمة فيضيئها ، ويعطيهم عقولا يفتقون بها
عقول الأمة ويفتحون أذهانها ، وتشيع فيهم عدلا يطبقون
قواعده فيبعثون أخوتها ، وإرادة قوية يخلقون بها قوة الأمة
وإرادتها ، وطبعا صافيا يطبعون به الأمة على الفضيلة .
هذه هي أخلاق الرسل والأنبياء ، وهي صفات القادة
والمصلحين وهي هي صفات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم
في ذكره يتجدد فينا ربيع التاريخ ، وفي يوم ميلاده نستشرف
الأعاجاد ونستمد العون على إنهاض الجيل .

الحُرِّيَّةُ وَالْإِبْدَاعُ بين الشرق والغرب

كلمة الشرق عَذْبَةٌ في أفواه الغربيين ، فإذا رَدَّدها
الشباب والشبان ذكروا مغاني بغداد وأيام الرشيد فيما عرفوه
من قصص ألف ليلة وليلة ، وما أشبهها من القصص والحكايات
التي مثلت لهم ثراء الشرق وَنَعِيمَهُ . وإذا ذكرها الكهول
والعلماء قالوا عنه : إنه موطن الرسل ومهبط الوحي ومعدن
الشرائع ، وقرنوا بهذه الذكرى مدينة بابل^(١) وجانب الطور
الأيمن^(٢) ، وثاني القبلتين^(٣) وبطاح مكة والمدينة^(٤) .
وكما جمعنا بهم الجامع وتجاوزنا أطراف الحديث كان
مفتاح الكلام يبتنا وبينهم هذا التراث الخالد الذي يفتح لآبتي
الخيال ، ففري كيف بعثها الآباء شرائع وهدايات أنارت القلوب
وأيقظت النفوس وحركت الهمم ، وأطلقت الألسن بالحق

(١) إشارة إلى حوراني (٢) شريعة موسى (٣) شريعة عيسى (٤) شريعة محمد .

أيام كان العالمُ يَنُوءُ بأعباء الجهالة الجُهلاء ، ويتخبط في الضلالة العمياء .

ذلك ماض كنا نعيش به في الغرب موفوري الكرامة ، لا تقرن به حاضرًا ولا مستقبلًا . فإذا كان التفاخر والتكاثُر في شيء بيننا وبينهم ، فإنما يكون بماضينا وحاضرهم ، فلنا من ماضينا ما نزهو به ، ولهم من حاضرهم ما يَتِيهُونَ به .

إنهم عرفوا نواميس الطبيعة فاشترعوا لها شرائع ، نظمت روابط هذه النواميس بمطالب الإنسان ، وجعلوا الإنسان وحده مدار هذا التنظيم ، واتخذوا من الفرد مبدأً تسخر له قوى الطبيعة ، وتستثمر كي يَتَكَوَّنَ لِيُعِينَهُمْ على اكتمال هذا التسخير والاستثمار ، وكلما حالت بهم الأحوال وتقلبت الأعوام ابتدعوا له سنناً ومناهج تراققه من سنى طفولته ، ترعى هذه الطفولة وتكون شبابه ، مبدؤهم في ذلك « الفردُ للكُلِّ والكُلُّ للفرد » . والأسرة نواة الشعب والشعب حارس الأسرة ، فإذا اكتمل الفرد كان عضواً في هذه المجموعة يزيناها ويعينها ، وهو في كل ذلك مرموق ، تترقب

المجموعة أعماله فستبشر بخيرها وتنتقد شرها ، فإذا أدركته
الشيخوخة وأوفى على الكبر اعتزلها معزلاً مكرماً محفوظ
الحق حتى يدخل حفرته . وإذا فارقها غض الإهاب تاركاً وراءه
صغاره غادرها مطمئن البال هادئ الضمير ، تاركاً إياهم لعين
ترعاهم ونظم تحفظ حقهم .

يمثل هذا الخيال الحلو الذي كان يسمو بنا إلى ماضى
الآباء ، ويمثل هذه الحقائق التي كانت أمام أعيننا ، كنا نعيش
في ناحية محايدة^(١) من نواحي الغرب أوجبت علينا ظروف
هذه المحنة^(٢) البقاء فيها ، فلما تفتحت السبل تركناها إلى الشرق
الجميل ، مراتع الصبا ومرقد الأجداد وموطن العشيرة ومحط
الأمل وموضع العمل !! .

فلما ألتقت السفينة على عتبة الشرق مرَّ سآها ، نزلنا على
اسم الله بهذه البشرية ، ولكن ما كادت تترك أقدامنا سلم
الباخرة حتى فجأتنا معارك مدار رحاها رغيف الخبز .
فكان الانطباع الأول الذي أدركنا فيه أن هذه

(٢) الحرب العالمية الثانية .

(١) سويسرة

الطبيعة الغنية التي يحسدنا عليها الغربُ لا تزال قواها كائسمة
في مكانسها ، بعيدة لا نعرف نظمها ، ولا نفهم قواينها ،
ولا تربطنا بها صلة . وأن الفرد الذي خلق ليسخرها ويستغلها
لا يزال في المؤخرة يسحب ذيله كالذي يتخبطه الشيطان من
المس ، لا يعرف الدنيا ولا الدنيا تعرفه ، يقع النظر على قطعان
منه في مختلف الأعمار ، يعثون بالطبيعة والطبيعة تسخر
وتنتقم منهم ، أكثرهم في أجسام مُحطمة موبوءة متدثرة
بأطوار بالية منطوية على أنفس لعب الدهر بها الأعيبه .
وأبرز خصائص هذه النفوس قفر مدقع ، وفقدان ثقة
بهذا المحيط الذي لا يعرف الفرد ولا يحترمه . فالفرد الذي
يستغل قوى الطبيعة في الغرب ليس مثل الفرد الذي تُنهك
الطبيعة قواه في الشرق . ورب الأسرة التي يحفظها نظام
الغرب ليس مثل رب الأسرة التي تفككها الفوضى في الشرق
والعضلة والدماغ اللذان يبديان الحياة في الغرب مهملتان
منبوذتان في الشرق .

تفقد الأسرة ربها في الغرب فيحتضن المحيط أطفاله

ليحفظهم من العوادي ، ويتجه بهم الاتجاه الذي قننته النظم
وأوجبه الشرائع . وتفقد الأسرة ربها في الشرق فيترك أطفاله
في خضم المحيط تسحقهم الأوبئة والأمراض : وبعضهم الجوع
والبرد ، وتتلون طباعهم ، وتتغير نفوسهم على غرار ما ذكرت ،
حتى يشبوا على الإجرام ، فإذا عرفهم المحيط عرفهم في أحضان السجن
وسلم عليهم بيد الحارس ، لا بيد المعلم ، وييد المنتقم لا بيد المنعم .
يُنشئ المحيط المهذب أسرته على قواعد الحرية واستقلال
الرأى ، فتشيع في جوانبها المحبة ، وتغمرها السعادة فيمتلئ
البيت بالآمال ويطفح بالرجاء ، ويرتبط بالوطن الواسع ارتباط
الحبيب المقيم بالمحبوب ، فيركض إلى ندائه ، ويلبى الصرخ
الأول ، ويتجرد عن ذاته ويذوب في هذه الدائرة لأنه يعلم
أنه منها وإليها ، لن تتركه عند نزول الخطب بل تقاسمه الخير
والشر ، فتكون ثقته في هذا المحيط ثقة النبي بربه ، وينبت
الفرد في هذا البيت السعيد فيهديه إلى المحيط ، فيستقبله هذا
المحيط بذراعيه ، فإذا مشى مع أستاذه في مجامع العلم والصناعة
مشى معه مثما يمشى الطيرُ ضعيفُ الجناح مع أبويه ، حتى

إذا اشتدت عضلاته ونما ريشه تركاه يطير بجناحيه مستقلا
معجبا بنفسه ، ينتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى
أخرى ، وإذا وقف إلى جانب رئيسه نظر إليه هذا الرئيس
نظرة الوالد الشفيق إلى ولده العزيز ، يفتخر بمواهبه ، فينميناها
ويقويها ، فيدرج في أحضان العزة والقوة ومضاء العزم وسناء
الرأى ، ويرى وهو بعد في سن الكهولة مظاهر فوزه في
فضاء هذه الحرية ، واستقلال شخصيته التي تسير به إلى
رجولة مكتملة مظهرها الكرامة والأمل الحى والثقة
بالنفس ، وهكذا تنشأ الأجيال جيلا بعد جيل ، وَيُخَلِّدُ الْجِيلَ
الثانى مفاخر الجيل الأول ، شأن الغرب فى جميع نواحي العالم .
أما المحيط المرتبك فإن مثله مثل الغابة الغيباء تشتبك
أصولها وَتَشْتَجِرُ فروعها فإذا نبتت صغارها حجبها عن الشمس
وظلالها بظلال مظلم ، فتشرع هذه الصغار تتلوى على الجذوع
كى تصعد لترى وجه الشمس وتستذوق طعم الحياة .
فإذا نشأ الشاب فى مثل هذا المحيط وجد نفسه فى مثل
هذه الغابة الغيباء ، فيطفق يتلوى لأن هذه الجذوع صلبة

لا تلين ومشتجرة لا تتفكك ، غير أنها ضعيفة الثقة بنفسها ،
تخشى أن تنكسر إذا قويت بجانبها شجرة أخرى وهكذا
ينشأ الجيل الجديد ضعيفا منخوبا ، تخمد بين جوانحه كل
الغرائز الفاضلة فتذل نفسه ، وتتولى تلوى العسلوج على
الجذع الجبار ، وبشرع يعتمد على المحسوية والمنسوية ويركن
إلى العشيرة والقبيلة شأن الجاهلية الأولى ، ويتخذ المشعوذين
والدجالين عوناً له على هذه الحياة القاسية ، فإذا تمكن من
رغيف خبزِهِ عض عليه بالنواجذ ، وأخذ يقسو على غيره بمثل
ما وقعت القسوة عليه أو أشد .

وهكذا تشرع تتخبط قوى الأمة ، وتنفصم عرى المحبة
بهذه الدائرة التي تضم أفرادها ، وتضعف الثقة وتنام المهمة
ويتوارى الناظم ، وينقرضُ الجيل ويخلفه جيل آخر ولكن
لا يخلده ، بل كلما جاءت أمة لعنت أختها ، والسعيد السعيد
في هذا النشء الجديد من كان منبته على حافة هذه الغابة
الشجراء ليرى وجه الشمس وحده ، ولكن وأسفاه لن

يستطيع أن يدخل هذه الغابة المظلمة ليشذب عساليجها
ويزكي أصولها، فيظل يحترق بسناء شمسهِ ، وَيُحَرِّقُ الأَرَمَّ
حَسْرَةً على هذا الظلال الذاهب .

اللهم إننا تركنا هذا الشرق أعواماً طويلاً ، وكان الأمل الحى
يشع فى نفوسنا ، ووضعنا أرجلنا على عتبه بعد هذه السنين
والرجاء القوى لم يقبل أن يتراجع فمن أى المحيطين هو ، فإن
كان من النوع الأول فأين مظاهره ؟ . . . وإن كان من النوع
الثانى فلن يُنهِضَهُ من هذه الهوة إلا إيمان بحق الفرد ،
واستثمار قوته وتشريع متقن نافذ ، يحفظ الاسرة وتربية
الفرد تربية تحمله على النظام والطاعة ، وتشيع فى نفسه الثقة ،
وعدالة شاملة تحل المحبة محل التباغض والتحاسد والتنافر ،
وتعبئة سياسية وعامية واقتصادية يوجهها تضامناً من الكهل
المجرب والشاب الناشئ ، يكون فيها مظهرنا تراصف
الصفوف وتوحيد الجماعات ، وهذه لن يظفر فيها إلا فى
ظلال الإخلاص والجرأة .

أزمة الحكيم في ظلال الحرية وكهوف العبودية

تنام الأمم الحية ملء جفونها ليلة ينتقل الحكم فيها من حزب إلى حزب أو من جماعة إلى أخرى، أو من فرد إلى فرد، ويسهر الحاكمون من جراء هذا الانتقال، ويختصمون في انتهاج السبيل الواضحة التي تمشي عليها أراعي الأمة، ذلك لأن دستور الحاكم والمحكوم دستور واضح، مثل الوالي فيه من الأمة كمثل الراعي من الرعية، وتستأنف الأمة أمورها يوم الانتقال وتعين على أنفسها، لأن الحاكم يضع نفسه للمجموع لا للفرد، ورب فرد مسرور بقدومه سيبتئس ورب مبتئس بقدومه سيُسّر، لأن هذا الحاكم يسوس الجميع بسلطان الدستور وبعدل الله المقرر، ولن يتم هذا إلا إذا كانت إرادة رئيس الحزب الذي أخذ الحكم بيده إرادة حرة، لا تعمل فيها إرادة الغير فتحوله إلى ممثل ممسوخ من الممثلين، الذين

يتقمصون الأدوار فيفسرون أنفسهم ، لتظهر ملاحظتهم بغير
ما تنطوى عليه جوانحهم ، وهنا مواطن الإفساد وسوء الظن ،
وانحلال الرابطة بين الحاكم والمحكوم ، فيعود الأمن خوفاً
واليقين شكاً ، ويبقى المبتئس على ابتئاسه ، وينعم المسرور
بسروره ، ويضع مثل هذا الوالى عادة على وجهه قناعاً ذهبياً ،
حتى لا ينفذ الناس إلى أعماق قلبه ، فيروا في قعره القواقع
والضفادع والحيتان والأفاعى وبنات السرطان ، التى يطلقها
على صيده متى أراد ، ينهش بها أعراضهم ، ويأخذ أموالهم ،
ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، فيخافه البريء ، ويأمنه المسيء .
مثل هذه الوالى يَنْبُتُ فى منابت الأمم السادرة فى جهلها
أو المغلوبة على أمرها ، التى ليس لها من إرادتها إلا اسمها ،
وهذه الأمم تضطرب فى أعمالها وتشتبه أعلام طرقها ،
فتضل السبل وتعمى حواسها « فتنعم »^(١) كل نفي وتنفي كل
« نعم » . فإذا قيل لها عن الماء النмир العذب إنه ملح أجاج ،
قالت نعم ! ، وإن قيل لها إن خبت الحديد ذهب وهاج

(١) أى تقول نعم .

قالت : أجل ، وإن ساس قيادتها سائس خبل قالت : إنه محنك
مجرّب ! ، وإن طبَّ علل أبنائها ييطرى قالت إنه حكيم
نطاسى ، وإن علم أولادها جاهل أبتى ، ومشعوذ أسنُّ قالت إنه
« برفيسور » أو نابغة من نوابغ الدهر و جنُّ أفلتت من وادى عبقر .
وهكذا تفسد تدابيرها ويأكل حنطتها شعيرها ،
فتكون ضحكة الأمم ومسحاة من مسوخ الشعوب ، ويتبع
ذلك فساد الطوية الذى يلازمه فساد الأعمال وتتغير التعاريف
والمفاهيم ، ويصبح مفهوم الرشوة هبة أو عطية أو هدية .
وتطلق لفظة السرقة على المهارة ، ويعود الكذب خدعة من
الخدع المباحة فى الحروب .

وأمة تصل فى حالها إلى هذا المصير أمة وقاك الله شرها
وحماك من بلاء العيش فيها .

أما الأمم الحية فالولاية فيها عبء ثقيل ، لأن فيها التعمير
والإبداع والتكوين ، وفيها المثل العليا التى يتسع لها قلب
الوالى الكفو الذى يقمدمكاته بكفايته : وهل ينبت زعيم
كامل إلا فى شعب حى الضمير ، له قلب وبصيرة ، والشعب

الحى الذى يثبت فيه مثل هذا الوالى تكون مقاييسه واضحة الحدود لا تطيش الكفة الراجحة ولا يتقلص الذراع الوافى بل تتعادل كفة بكفة وتوازى ذراع ذراعاً أخرى .
ويطيش الخفيف ويرجح الثقيل ، ويُقَدِّمُ على الأعمال كَمَلَّةُ الرجال ، ويختار للمناصب فَوْقَةَ المثقفين الصالحين الذين كونوا أنفسهم لأعمالهم ، وعينت مناصب هذه الأعمال لهم .
وهنا تسمو مجموعة الأمة وسمو المجموعة معناه اتساع أفق الحرية ، وفسحة الأمل فى فضاء الأمة ، والأمة التى يتعاقب فى فضاءها الأمل والحرية تمتلئ بالإبداع والتكوين ، وتتوج المثل العليا أفعالها وأقوالها وتصفو سرائرها وظواهرها ، فتزول فوارق الحسد فيها وتحل محلها مجاميع الغبطة ، ويأخذ التنافر فى الإنشاء مكان التزاحم فى التدمير ، وتصبح الأنانية الفردية أثراً من الآثار القديمة ، تنظر إليها العيون شزرأ ، ويعانق الفرد أخاه على اسم الله والوطن ؛ وعلى هذا النمط تتكون المجموعة الديمقراطية فى كل شعب يحب نسيم الحرية ؛
ويطمع إلى الإبداع فى عالم البشرية . . . !

توزيع الثروة

بين يدي الحسنة والعدل

ويجب توزيع مقام البلد ومغارمه على أبنائه
بعدل لئلا ينشأ الألم والحسرة في جهة
والطغيان والجشع في جهة أخرى (١).

في منتصف القرن الثامن عشر عرض المجمع العلمي في
ديجون مسألة للكتاب ، طلب منهم فيها أن يشرحوا أصول
عدم المساواة بين الناس وسألهم فيها : « هل يرضى القانون
الطبيعي بعدم المساواة ؟؟ ... » .

فكان « جان جاك روسو » أسبق الكتاب إلى هذه
الإجابة ، وقرر في جوابه بعد أن وصف أحوال الأمم في
العصور الخالية وصفا خياليا ، تناول فيه سعادتهم في ظل الجهالة
وهم يفترشون أحضان الطبيعة ، وأثبت فيه أن الحضارة سبب
هذا الشقاء الذي يتقلب فيه بنو الإنسان ، قال :

(١) مقتبس من خطاب العرش الذي ألقاه سمو وصي العراق المعظم في عام ١٩٤٦
عند افتتاح المجلس النيابي .

« إن كل ثروة يحتفظ بها الفرد هي جنايةٌ على الإنسانية
وذلك لغيره من أبناء جنسه .

لقد كان « روسو » عادلاً كل العدل في حكمه على
الطبيعة ، ولكنه تسا كل القسوة على الحضارة فإن الحضارة
ما كانت يوماً ما مبعثاً لشقاء الإنسان ، إلا إذا سخر هذا الإنسان
بالمبادئ الخلقية ، وعبث بالحقائق الاجتماعية والنظم السماوية ،
وأصبحت مصالح الإنسان مشروعة ، إذ سادتها القوة ، وعادت
القوانين والنظم لا تُشرع إلا لمصلحة فرد في نفسه منقطع في
في هذه المصلحة عن المجموع .

في مثل هذه الحالة تسود القوضى ، ويركب الفرد رأسه
ويختار في سيره من الأساليب والطرق ما يكفل رغباته
وحاجاته ، ويقرر ما توحيه إليه مصلحته ، عند ذلك تصبح
الحضارة جحيماً تأجيج نيرانه ويتناثر جمعه . ؟

سبقت سهول الرافدين جميع الأمم في الحضارة وكانت
شريعة حمورابي - نابغة هذا السهول - أولى شرائع الأمم
إذا تصفحتها بهرك ما تدل عليه موادها من توزيع عادل متقن

ومن ضمان مؤكد لهذا التوزيع ، فإن الجندي والشرطي والموظف ، يتمتع كل منهم بيت وبستان وحقل لم تمتد إلى حوزها أيدي المراهين ، ولن تمتلكها ديون الدائنين ومن سولت إليه نفسه في انتزاع مثل هذه الملكية من مالكتها بغير حق كان عقابه الإعدام حرّقا أو غرقا أو ذبحا .

لقد كان أفق المشرع في هذا واسعا ورأيه مصيبا ، فإن هذه الطبقة من الناس يكون رزقهم محدودا على خلاف ما عليه المتاجرون والمزارعون وهذه الشريعة على بساطتها وضيق موادها أمنت استغلال هذه الثروة الطبيعية تأمينا وتقرأ في ثناياها نوعا من الاهتمام بشئون الفرد في نطاق المجموع ، وهو نوع من الحضارة عند الأمم الخالية ، يجد روسو فيه العدل الطبيعي .

فإذا حادت الأمم عن التشريع ، واستهزأت بحقوق الفرد ، شاع الظلم في أرجائها وتحكمت القوة ، وساد الاستبداد الذي يكون مبدأ الانهيار .

ويحدثنا تاريخ العرب أن عمر بن الخطاب دون دواوين

الإحصاء ، وكتب الناس على منازلهم ، وكان ينزل بنفسه مواطن القبائل فلا تغيب عنه بكر ولا ثيب ، ويعطيهم في أيديهم ، ويقول : « والله ما من أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيهم إلا كأحدكم ، ولکننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله والرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لياتين الراعي يجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه » .

لم يقرأ همورابي مذاهب العصر الحديث ، ولا تخرج عمر بن الخطاب في جامعة من جامعات أوروبا ولكنه العدل ، هو هو ، لم يتغير بل يتحدر في أصلاب الأمم جيلا بعد جيل . حتى يصطدم بصخرة الاستبداد العاتية ، أو تتلقفه أمواج الجشع الطاغية فتلقيه في عراء سحيق ، ثم يهتيء الله له رسل الإصلاح فيأخذوا بيديه ، فإذا رافق العدل شعور بالإخاء ،

وأصبح الفرد ابناً للمجموعة التي يعيش فيها ، وشمل هذا الشعور ابن القرية في قريته ، ورجل الناحية في ناحيته ، كانت الأمة أسرة واحدة تظللها سماء الوطن وتقلها غبراءؤه . وهذه أيضاً مثل من أمثلة الحضارة ، لو وفق الله روسو لقراءته لكان له رأى في الحضارة غير رأيه هذا .

إننا إذا بحثنا في توزيع الثروة فإننا لا نريد أن يكون المثل في ذلك مثل ما فعل الخليفة المأمون حين تزوج بوران بنت الحسن ، فوزع بدر الذهب على المحتفلين ، ونثر عليهم كرات المسك ، وفي كل كرة قصاصة ورق مكتوب فيها اسم ضيعة أو جارية ، أو حصان يأخذها من تقع بيده . فإن مثل هذا التوزيع نوع لا تقبله شريعة ولا يقره عدل .

ولا نريد أن يكون التوزيع أن تستولى الدولة على أموال المجدودين^(١) فتنتثرها على رؤوس المحدودين^(٢) . بل نريد تشريعاً منبثقاً من تقاليدنا وعاداتنا ويثبتنا اللاتي لم تفسدها الطوارئ

(١) الأغنياء .

(٢) الفقراء .

فإننا مهما فعلنا لا نستطيع أن نلبس ثوباً يفصله غيرنا .
إنك تجد الفرد السويسرى سعيداً فى تشريعہ وفى نظامه
يحف به أطفاله كما تحف الزهور بالغصن ، وقد يكون كذلك
الفرنسى والبلجىكى والهولندى والدينماركى والإنكايزى
والروسى والألمانى . . الخ .

وكل شعب من هذه الشعوب له نظامه الخاص الذى
يكفل له نوع التوزيع ، وهى لا تخضع لغير ما توحىه إليها
بيئتها وطبيعة أرضها ، وتجد فى الأثواب التى تلبسها الأمم
غيرها إنها لا تلاءمها ، فقد تكون فضفاضة وقد تكون
ضيقة ، ومهما تنازرت أحزابها وتخاصمت جماعاتها فإنها
تبقى خاضعة لهذه النظم التى أمتها عليها طبيعة أرضها والتى
يتوجهها العدل .

إن سهولنا تحتال بثروة طبيعية ، تغبطها عليها كثير من
الأمم ، وهذه الثروة منها ما هو فى متناول أيدينا ، ومنها
ما هو خارج عنها . وما هو فى متناول اليد مبعثر هنا وهناك ،
تسطو على قسم منها بين الفينة والفينة جماعات تساعدنا

مرا كزها ونفوذها ، فتقتسمها بينها وتحتججها لنفسها ،
وتبقى جماعات أخرى في المقعد القصي ، ومن هنا ينبعث الجور
ويتركز الثراء والنعيم في ناحية ، والفقر والشقاء في أخرى ،
فتقع عينك على فرد يملك عشرة منازل ، وعلى آخر لا يملك
موضع قدم ، وآخر تتكدس له في الخزائن والبنوك ودائع الذهب
والصكوك يتصرف فيها كيف يشاء ويختار ، وآخر يطوى
الليل والنهار وراء الفلّس^(١) والفلس يهرب منه ، وهنا ينشأ
الألم والحسرة في جهة ، والطغيان والجشع في جهة أخرى ،
وهنا يحق للكاتب روسو أن ينعت الحضارة بالجحيم المتأجج ،
ولكني أعتقد أن روسو يقف خاشع الطرف ، رافعاً قبعته
أمام الدولة التي توزع أراضيها « الأميرية » توزيعاً عادلاً ، وتضع
نظاماً تشريعياً يشمل الفرد في قريته وفي بلده ، دون أن تصطدم
بنظام هذا الإقطاع البغيض الذي ينهار من نفسه عند ما تبدأ
تشتغل العضلة لنفسها ، وتشرع تنتج للأسرة التي ترعاها ، فإن
قوة العضلة مغلوطة للإقطاعيين الذين ينعمون بهذا الثراء الفاحش .

(١) الفلّس عملة عراقية قريبة من « المليم » .

ويحق للكاتب روسو أن يقول إن كل ثروة يحتفظ
بها الفرد جنائية على الإنسانية وذلة لغيره من أبناء جنسه ، إذا
رأى أمة بلغت بها مشكلة المنازل الزبى وجاوز فيها الحزام
الطبيين ، ورأى أفراد هذه الأمة ، إما مثيرين نعم في قصرٍ وثير
ويقضى رحلة الشتاء في قصر ورحلة الصيف في آخر ، وإما
فقير مدقع يهيم في العراء ، أو يسكن كوخا فتكت به الأوبئة
وإما لاجئ يتكدس مع غيره مثلما تتكدس قطع السمك
في علب « السردين » ، أو مستأجر يتحكم المؤجر فيه كيفما
يريد ، ولكن روسو يقف موقف الإجلال عندما يرى الدولة
تبدأ تحل مشكلة المنازل فتنشئ شركة ، أو تستدعى شركة
تقوم بإعداد المنازل على غرار ما تقوم به الأمم ذات العزة
في حل هذه المعضلة ، وتكون غايتها انتقال هذه المنازل
بقيمة الإيجار إلى الساكن وهكذا يرى الملاكون أنفسهم
أمام الأمر الواقع ، ويشرعون يتخلصون من تعداد أملاكهم
لتنقل إلى أفراد الأمة الواحد تلو الآخر .

وماذا يقول روسو عندما يرى تجارة أمة تتناهبها أيدي

الفوضى ، ويشيع الجشع في جوانبها ، وتسير في طريق أشبه
بالسرقة منها بالمعاملة ، فإن المشتري ينهب في وضوح النهار ،
وضريبة الدولة في هذا الجانب من ثروة الأمة لا تعرف لها
مدخلا ولا مخرجا ، والتاجر فيها ينعم ويثري على حساب
المشترى المخدوع ، وأعتقد أن روسو يبجل الحضارة
ويشيد بذكرها عندما يرى الدولة تفرض نظام إمساك
الدفاتر على كل بائع وبائعة ، وتضع السعر على كل بضاعة
فتحفظ حقها وضريبتها التي تعمر الأرض وتحضر البلاد ،
وتقلم أظفار الجشع الفاحش ، وتعرف صادرها وواردها .
ولماذا لا يفرح روسو بالحضارة إذا التفتت الدولة إلى أفرادها
فاستأصت البطالة وآوت العجزة ، ونشرت وسائل الصحة
وحفظت الشيخوخة من الذلة .

ورأت في توزيع الثروة على موظفيها أن تتخذ عمل الرجل
وبلاءه وقدمه وحاجته التي يبعثها عدد أسرته أساسا للتوزيع !!
اللهم إننا نريد أن نبعثها « عمرية »^(١) متوجة بالعدل

(١) نسبة إلى عمر رضى الله عنه .

مقرونة بالإحصاء الدقيق ، مبعثها شرائعنا ونظمنا ومثلنا
العليا في أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدينا ، وما ورثناه عن آباءنا
وأجدادنا .

على مثل هذا الغرار نريد توزيع الثروة وتقليم أظفار هذا
الجمشع !! والقضاء على نظام الإقطاع .

عراك الأجزاء في ضلال الخيرية

إذا أصبحت الأمم في دهر عنود وزمن شديد ، أو إذا عاشت فيها الفوضى وَعَفَا العدل ، أو انحل الناظم ، فزلت قدمها عن طريقها السوي ، مالت نفوسها وتطلعت الرءوس ، واستشربت العيون ، تنتظر الرائد المحنك ! .

بمثل هذه الظواهر التي تتقدم وجوب الإصلاح تمتلئ صحائف الكتب ، وَتَتَفِيحُ بطون التاريخ ، شاعت مثل هذه الظواهر في بلاد العرب قبل مبعث النبوة إذ رَبَّكَتَهُمُ الفوضى ، وشرع عقلاء القوم ينظرون فيما هم عليه من الضلالة والجهالة ، وطفقوا يسفهون أحلام قومهم ، ويعيبون أصنامهم توطئة لمقدم العبقري المنقذ الذي لا يفري أحد فريه .

بمثل هذا تطفح الصحف ، وعن مثل هذا الحادث يتمخض الرأي العام في عصرنا هذا .

ويتحدث عقلاء القوم يسفهون هذا الوضع ، ويعيبون هذا الشذوذ ، ويتشاورون في الأمر ، ويجتمعون بهذا ، ويكلمون ذاك ، يرغبون ويعدون . كل هذه الحركة توطئة لاندفاع الأحزاب ، وانتظار القائد المنقذ ، فأى الأحزاب نريد ؟ . . وأى منقذ ننتظر ؟ . .

تنشأ الأحزاب عند الأمم المنظمة لتحقيق فكرة ، أو انتصار لرأى ، وتتطاحن فيما بينها في سبيل تخليد الشعب ، وحفظه من العوادي ، ورفع مستوى معيشتة ورفاهيته ، وتركيز قواعد العدل بين أفرادها ، لإنشاء جبل ممتاز ، وتكون هذه الأحزاب مدرسة عليا تُنشئ في أحضانها عباقرة السياسة والخطباء اللُّسُن ، الذين يكونون في الطليعة عند اشتداد معارك الحياة .

مثل هذا الطراز من الحزبية ، حقل تنمو فيه مواهب الأفراد المختارين ، الذين مثلهم كمثل الفراشة تدل الناظر على النور فتحترق .

تتطاحن أحزاب الأمم ذات الشوكة والعزة والنظم

المركزة في هذا العصر في معركة تدور رحاها حول تسوية المشكلات التي ولدتها هذه الحرب الضروس ، والفوز فيها لمن له الحول والقوة في ضبط الموازنة بين قوى الشعب ، بين العضلة الإنسانية وبين دولا ب الحديد ؛ بين نتاج الطبيعة وبين مداخن المصانع .

وقد رأينا أحزاباً اتخذت الفرد أساساً لنضالها ، ومركزاً تدور حوله جميع مكوناته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووضعت مناهجها على توجيه هذه المكونات التي تنتهي إلى إيصال الأمة إلى المحل الرفيع بين مقاعد الأمم

وعند بعض الدول التي يشيع العدل الاجتماعي بين أفرادها ، وتستند إلى تشريع متقن تكون مهمة الأحزاب فيها تميم مكارم الأمة ، وتدور رحي الممارك فيها حول بلمهنية العيش والترفيه عن حياة الفرد ، مثل خفض ضريبة أو رفعها في صالح الأمة ؛ مثل إنشاء المصانع وفتح الطرق ، أو بناء المساكن الصحية للإيواء عند ازدياد السكان وما يشبه ذلك !!! هكذا تمشي الأحزاب الرصينة بين ناظريها منهج تريد

تحقيقه وتجعله هدفها الأول ، فإذا جاءت المناصب اتخذتها وسيلة لتحقيق ، فإن لم تنجح تركت ميدان العمل لغيرها راضية مطمئنة .

أما الأمم الضعيفة التي يتأرجح تشريعها بين قوى الأهواء ، ولا تستند نظمها إلى أساس ثابت ، وتغمر الأمية طبقاتها . ويكون نتاج الفرد فيها نهبا مقسما ، أو عرضة لرحمة الطبيعة وقسوتها . ويتحكم الفقر في أرجائها ، وتسودها البطالة وتتكدس في (مقاهيها) وشوارعها قطعان البشر ، وتفتك في بيوتها (إن صح أن لها بيوتا) الأوبئة .

مثل هذه الأمم تفوز فيها الشعوذة والدجل ، وتستعبد بها التعاويذ والتمايم والتقاليد الطارئة .

وفي مثل هذه الأمم تكون طرق الأحزاب مملوءة بالحسك والعوسج ، ويكون تنافسها في اختيار الناحية التي تبتدىء بها وتأخذ على عائقها صلاح فسادها ، وتكون هذه الأحزاب على نوعين لا ثالث لهما ، إما أن تصطدم بهذه الصخرة العاتية ، فترتد خاسئة الطرف ، وإما أن يكون

تنافسها في الوصول إلى منصب فيكون سلاحها في ذلك
التناز بالالقباب وَتَسْفِيَةَ الأحلام والكد والخلل في تحطيم
منافسها وتنتهي في كل منهاجها إلى هذا المنصب المتمايل ،
وتقتصر في عملها على حل ما وثقه سلفها في تقريب هذا وإبعاد
ذاك ، كالتى تقضت غزها من بعد قوة أنكاثا .

ومن هنا يبدأ الانحلال في الأدوات والآلات التى
تتركب منها « ما كينة » الدولة التى تدير دولا بها مثل هذه
الأحزاب ، وهنا يصبح الفرد الذى ينتمى إلى هذه الأحزاب ،
والذى تريد اختياره لتوجيه الجماعات ضحية للجشع الذى
يتحكم فيه ، والضعف الذى يستولى على نفسه ، ويجعل كل
ما فى تكوين حياته خاضعا لهذه المنسوية التى تشيع فيه ذلة
النفس ، عند هذا تشرع تنخزل أسراب جماعات الأمة كما
تنخزل أسراب الضبباء هاجمتها الذئاب ، ولكن قد يبعث الله
لمثل هذه الأمة نفحة سماوية ، فتنبت فى أحضانها جماعة
يمحون الذات ، ويكونون الفداء الأول فى سبيل تخليد جيلهم
وتركيز حياتهم المبعثرة ، وتندفع هذه الجماهير من صيحة هذه

الأفئدة المؤمنة تترسم خطاها في الفداء ، وتمشى على هداها
في الإيمان .

هنا تكون الأحزاب مدرسة تُحرِّرُ الأفكار من الأوهام
وهنا تتربى الإرادة وتبرز المواهب من مكانها ، وتقوى النفوس
وتطمئن إلى جانب العزة ، وإذا قويت النفوس ضمنت تراصف
الصفوف ؛ هنا يكون التنافس في سبيل الخلود الدائم ، لافي
سبيل اللذة العابرة ، لمثل هذه الأحزاب يجب أن يتمخض
الرأى العام وينتظر الرائد الأول الذي لا يكذب أهله .

الجامعات المحررة تخلق الرجال وتنشئ الأجيال

في جامعة من جامعات أوروبا^(١) وقف أستاذ علم النفس في فاتحة الفصل الدراسي ، وبعد أن توسم وجوه الشباب قال : « إن الأمر الذي تهتم به جامعاتنا هو تكوين الرجال وتوزيعهم على نواحي الحياة ليلبغوا رسالتنا ويتمموا مكارم مناهجنا ، فإن الإرادة العليا شاءت أن يكون هذا الكائن الإنساني صفوة بين الكائنات ، و شاءت أن تخضع له قوى الطبيعة ، يَسْتَدِلُّ متونها ويستثمر بطونها ، فهيات له مواهب الإنشاء والتكوين . ووظيفة الجامعة استثمار هذه المواهب ، وتوجيهها توجيهها ينشئ لها جيلا جديدا يخلف الجيل السابق ويضع قواعد الإنشاء للجيل المنتظر فأنتم خلفاؤنا ، فلنحسِّن التوجيه كي تحسنوا العمل والتبليغ » .

(١) جامعة بازل في سويسرة .

إن هذا القول لم يلق على عواهنه ، فإنك لو استطعت
أن تعيش بين طبقات هؤلاء الناس حيناً الدهر ، وشرعت
تتعرف طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وأهدافهم في
في الحياة لوجدتها حلقةً مفرّغةً ، تبدأ في البيت وتنتهي في
الجامعة ، حيث تتصل في البيت .

فإذا سألت المرأة الولود . لم هذه الكثرة في الأولاد؟
أجابتك إن الأمة تحتاج إلى الرجال . وإذا سألت الشواب
والشبان : لم هذا الجهد المتواصل ؟ . أجابوك إن الحياة صراع
دائم ، وأن الزمن سيف قاطع ، إن لم تقطعه قطعنا . وإذا سألت
الرجل الكهل المجرب لم هذا الحرص ؟ . . . قال لك إن المرء
حديثٌ بَعْدَهُ ، وإن الأمة ساهمتني رسالةً لأبلغها ، ولن يهدأ
لى بال حتى أعرف من ذا الذي يتناولها ؟ . فإن المجد كل المجد
أن نُدثِيَّ الشواب والشبان على استلام هذه الرسالة ، ولن
نُسَلِّمَهُمْ عرْجاءً أو مفلوجةً .

تسيطر الجامعة على البيت لأن أبنائها في هذا البيت ،
وتسيطر على المدرسة الابتدائية ، لأن أحفادها في المدرسة ،

وتسيطر على المدارس الإعدادية لأن فتيانها في هذه الإعدادية .
فإذا استقبلتهم فإنها تستقبلهم للإِنْضاج ، وفي إنضاجها
هذا تصطفى من أساليب التربية أحدثها ، فتضع لكل فريق
من أبنائها مجموعة من مواد العلوم مترابطة ، متكاملة ، ترى
فيها المفتاح الأول الذي تسامه لهذا الفريق ، كي يفتح به أبواب
الحياة ، إذا ترك أبواب الجامعة ، وهي لا تقيس هذا الإنضاج
بطول الزمن أو قصره ، إنما تقيسه بإنتاج الأحلام والعقول !
إن مَثَلَ الجامعة للفتى مَثَلُ العِشِّ للطائر ، ينبت فيه ريشه
ويتكامل هيكله ، وفي المحيط تشتد عضلته وينبسط جناحه ،
وإلى كل ذلك تضيف الجامعة تقاليدها الموروثة ونظمها المنحدرة
في أصلاب الأجيال ، تلاءمها مع أحدث النظريات كي تحتفظ
بطابعها الخاص بها ، وشكلها الذي درجت عليه .

هكذا تُنشِئ الأُمم الحياة وتبنى ، وهكذا ينزل الفتيانُ
إلى ميادين هذه الحياة . الصانعُ إلى مصنعه ، والعالم إلى مكتبه ،
والسياسي إلى حزبه ومجالسه النيابية . فإذا احتضن المصنع هذا
الصانع ، أو قعد العالم في مكتبه ، وجد هذا المكتب وذاك

المصنع جميع مواهب هذه الشخصية مهذبة موجهة . تشق طرق الحياة وَتَفْتَرِعُ صعاب المشكلات .

وإذا نزل الفتيان منازل السياسة ، وانفتح لهم ذراع الحزب ، وجدوا طرازاً جديداً من التعليم والتدريب في نطاق الحزب ، تسعفهم نظرياتهم التي تدور في مخيلتهم ، وتكون أسساً يرتكز عليها بناء الدولة واتجاه الأمة ! فينتشرون في لجان الحزب يبحثون ، ويدرسون ويتعلمون ، ويقلدون ! فيتم هذا الإنضاج السياسي ذلك الإنضاج الجامعي ، وهنا تظهر الرجولة وتعيّن الزعامة مقعدها الذي تقعد فيه ، ويشرع الرائد يصطفى من بين هذه المواهب رجاله الذين يشدون الأزر ويديرون دفة السياسة .

لم يكن هذا النظام التكويني في هذه الأمم الحديثة بدعة ابتدعوها ، وإنما هو إرث اجتماعي عرفه الإنسان الأول ، ثم أخذ ينحدر في منحدرات الأجيال جيلاً بعد جيل ، تأخذه الأيدي وتتعاوره النظريات ، ويشذبه العلم ويهذبه التدريب ، ويسمو به النقل وتوافق به الأمم تطورها وتطور من حولها .

حسبك أن تلتفت ورائك ، فإذا وقعت عينك على مظان
التاريخ للأمم الخالية وجدت الإرادة العليا قد هيأت لهذا
الإنسان مواهب الإنشاء والتكوين منذ الفطرة الأولى ، ثم
تركته في العراء وعلى سواحل اليم ، يخترع ويتدع ، يقف
ويتطور إلى أن فتح عينيه ، فإذا به رب أسرة ، ثم رب
العشيرة ، ثم رجل الدولة .

أخذ المحيط يملئ عليه لزوميات العيش ، ووجائب الحياة ،
فكان له حضن الأم ، وذراع الأب المخرج الأول لمجابهة شدائد
الطبيعة وقسوتها ، فلما تعقدت عليه حياته ، واشتبكت أموره ،
احتضنته العشيرة ليكون لها الساعد عند نزول الحوادث .
ثم اتسع نطاق العشيرة بطوناً وقبائل ، وتحدت فيها المنازل
والمواطن ، فنزل الفرد رجلاً للأمة ينظم روابطها ، ويحمي
شغورها على حسب ما تمليه عليه تلك الفطرة .

ثم انفتح أمامه عالم الطبيعة الواسع ، فإذا به خلاب مليء
بالأسرار ، يثير الدهشة ويبعث الإعجاب ، ثم انبسط أمامه
هذا الحسن في السماء المصحية والحياة الصافية والظل الظليل ،

والنسيم الهادىء ، والشمس الوهاجة ، والمروج النضرة . وفتح
عينيه على قسوة هذا العالم ، فارتاع من العواصف الجائحة ،
والرياح الصرصر العاتية ، والبراكين الثائرة ، والشلالات
المنحدرة ، والصواعق المدمرة ، فصاغ لها التماثيل ، ثم توهمها
آلهة يخافها ، يعبدها ويتوسل إليها . وهكذا جرى هذا الإنسان
مع الخيال ، يبتدع الأساطير والأشعار ، وينحت التماثيل
والأصنام ، يفسر مظاهر هذا الكون ، ويضع أسس هذا
التفسير التي كانت فيما بعد نواة للتطور الدراسى والجامعى الذى
يدور كله حول تكوين الشخص لحفظ الأسرة والعشيرة
والدولة ، حتى كان الإسبرطيون « مثلاً » يسيطرون على تربية
أطفالهم من يوم ولادتهم ، فكان على الأب أن يحمل ولده
إلى دار الندوة ، حيث يجتمع رؤساء العشائر وشيوخ المدينة ،
فيضعه بين أيديهم ليختبروا قوة جسمه وتحمُّله لمشاق الحياة ،
فإن وجدوه ضعيفاً حرموه حق الحياة ، وألقوه فى جب عميق
تكون آخرته فيه ، وإن وجدوه قوى الجسم متناسب الخلق
منحوه حق الحياة وعدّوه ابناً للدولة وملكوه قسطاً من

أرضها ، وتركوه لأمه إلى السابعة ، ثم بعد ذلك يسمون
أولادهم إلى مروضى الفتيان ، يحفظونهم قوانين فلاسفتهم
وأشعار شعرائهم وأناشيدهم ، ويدربونهم على الرشق بالنبال ،
والرمي بالرماح والمصارعة والملاكمة ، وغير ذلك مما تتطلبه
الرجولة المكتملة التي تستدلُّ مُتُون الطبيعة .

وهم في كل ذلك يعملون على أن يكون الفرد للأمة والأمة
ملك الفرد ، وهنا لا تبرز إلا المواهب اللامعة ولا تتقدم إلا
الزمامة المنشئة . هذا مثل من أمثلة القرون الخالية ، تقف
في طورها عند هذا الحد وتترك ما تقدمه وما تأخر عنه ،
ومهما يكن فإنه نمط من أنماط التضامن الاجتماعي والتكوين
الجامعي في أبسط معانيه وفي أعقدها ، ومثل من الأمثلة التي
بعد أن تطورت أنبتت تلك الحضارات على ضفاف النيل
وشواطئ الرافدين وفي بطاح أثينا وأسبرطة وروما ، ومثل
من أمثلة التكوين والإنشاء الذي انحدر في الأجيال الأوروبية
نأخذ منه ومن أمثاله تزيد عليه أو نشذب ونهذب .

كان العرب في جاهليتهم تتحكم في حياتهم أنظمة العشيرة
والقبيلة، فكان حضن الأم العربية مهدياً من مهود العباقرة ،
على ذراعيها يترعع الحب للحياة وتُرَضَعُ أفويق الرحمة
والحنان ، وبين أصابعها تعجن العجينة الأولى ، وكان الخطيب
من العشيرة يأخذ منبر المبشر والمنذر ، يخوف القوم من
عدو مهاجم ، يجمعهم عند نزول الحرب ، ويصاح ذات البين ،
وهو بعد كل ذلك رسول العشيرة إلى العشيرة الأخرى عند
حدوث أمر جليل ، كما يحدث اليوم في إرسال الرسل بين
الدول لحل المشكلات ، وكان المحدث يقص عليهم آثارهم
الماضية ، ويحدثهم عن تاريخ الأمم الخالية ، ويصف لهم أيامهم
المشهود ليتخذوا منها عبرة ، أو لينسجوا على منوالها ،
أما الشاعر فكان حامى حماها ، يصف أوطانهم ويسجل نخرها
ويقيد حوادثها ، ويرفع صوتها ، وهو المعلم يعلم أولادها
الفضائل ، وبعبارة أوسع هو حكيمها فيلسوفها ووزير دعايتها.
فإذا وقعت عينك على الشعر العربي الأول وجدت فيه
تعاليم الرجولة التي مظهرها العفة والسخاء والصبر والحلم

والكرم ، ورحابة الذراع والصدق والوفاء ، والرحمة والإخاء
وعظم الهمة وحسن العهد . والعرب الأولون مندهشون من
مثل هذه المدرسة ، ومن هذا الطراز في التخرج ، ولم يجدوا
في قواميسهم كلمة تنطبق على هذا التكوين غير كلمة عبقرى
ولا كلمة لمثل هذه المدرسة إلا كلمة وادى عبقره فإذا نشأ
الشاعر في القبيلة أقامت الأعراس ، وجاءتها الوفود من جميع
الجوانب تهنئها في هذا الناشئ الجديد .

ولما جاءت مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم تمت هذه
المكارم ، وتوجتها بهذا المظهر الاجتماعى الحديث وهو :
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » فخصب وادى عبقر وطفق يبعث
للعالم بأولئك العباقره الذين ضربوا وجه الدهر ، الذين لا يزالون
ثروة تاريخنا نكاثر بهم الأمم ونفاخرها ، وهنا كان الدرس
الأول لمعنى الزعامة المبدعة التى تعرف قوة الأنصار والأعوان
والتي تعرف كيف تختار الرجال .

طويت صفحة هذه المدرسة كما طويت مدارس القرون

الأولى ، ووسع الموالي بيننا وبين ماضينا شقة البعد ،
وطمست معالم تاريخنا ، ففقدنا الأم المربية ، والمحدث الموجه ،
والشاعر المهذب ، والمدرّب المكون ، والرائد الذي يصطفى
الأعوان ونظرنا حولنا نفتش عن تلك الحلقة المفرغة التي تكون
الجامعة والبيت عند الأمم العادلة فإذا هي مهشمة محطمة ،
فوقفنا وقفة الحائر بين ماضينا المزهر ومستقبلنا المظلم وطفقنا
تلمس أنظمة الأمم الخالية لتتخذ العبرة منها ، وأنظمة الأمم
الحديثة لناخذ أحسنها ، فوقعت أيدينا على مظاهرها وبها رجعها .
ولذلك أصبحنا إذا تعلم أحدنا الفاتحة سمّيناه « علامة » .
وإذا ترثر في نأديه يريد أن يقتعد مقعد الزعامة ، ولبس
ذلك الجاهل معطف الكيد والمكر والذلة ، فهو تارة غبي
وبليد ، أو مادح مغرض أو يؤوس قنوط ، أو ضعيف خوار
بل هو محل الشخصية ، خلق الإرادة .

وتزمل ذلك المتزعم بن الثرثرة بيجاد الخيلاء والفخر ،
وظفق يجمع أعوانه ونصراه من بين أولئك الجهال ليكونوا
له ألسنة ثناء وتقريظ ، يسترون عيوبه ويرفعون خيلاءه ،

ثم هو لهم بعد هذا الضامن للعيش والكافل للمنزلة ، يطوف بهم
على دواوين العمل ، يستجدي لهم الوظائف ويهيء لهم مرائب
الرزق . وهنا مبعث الأثرة (الأنانية) وموطن المحسوية . وهنا
تعود تعبئة الفراز للعيش العابر ، للحياة العامة ، وتصبح أماكن
العمل للذين يعيشون لا للذين يدبرون ، وللذين يأكلون لا للذين
يفكرون ، فتتسحب الفضيلة راجعة إلى مكانها تجرر أذيالها ،
وتبرز الرذيلة تتبختر في خيلائها . وهذا هو مكن الفساد الذي
تنطق بالشكوى فيه أفواه المتكلمين وتصفه أقلام الكاتبين .
تفقد الأمة مصانع الرجال في البيت والجامعة والمحيط
والمجلس ، فتطلع رءوس الباطل ويمع الجهل والرياء والمكر
والخداع والعدوان ، ويلتهم الانغماس في النعيم جميع الفضائل
التهاما وَيُفْسِدُ الآداب إفسادا ، ويتقلب الحق في آلام الحسرة
وَتَرَى الرَّجُلَ يَتَدَثَّرُ بِالْأَلْقَابِ كَمَا تَلْفُ دَوْدَةُ الْقَرْحِ حَوْلَهَا
خِيُوطَ الْحَرِيرِ ، وَهِيَ فِي كُلِّ أَطْوَارِهَا حَشْرَةٌ .
كَانَتْ الْجَزِيرَةَ أُمَّا وَلُودًا تَلِدُ الْعَبَاقِرَةَ . فَهَلْ عَقِمَتْ
أَنْ تَلِدَ الرَّجُلَ الَّذِي يَجْمَعُ فِي قَلْبِهِ الْكَبِيرَ كُلِّ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ؟ .

العِبُورِيَّة تخلق أشباه الرجال

يقول نيتشه فيلسوف الألمان : « يَكْمُنُ في كل شخص طفل « وهو رأى صائب نتيجة لتحليل نفسى دقيق ، قد يراه نافذ الفكر واضحا فيما يعرض عليه كل يوم من ألوان الناس في غدوهم ورواحهم وجدهم وهزلهم . وهذا الطفل الكامن الذى يذكره نيتشه يختلف باختلاف الأشخاص ، فطفل العقلاء يبقى كامنا لا يظهر إلا حين يبلغ الجهد من العاقل مبلغا يمنح بعده إلى راحة النفس من العناء وإلى استجمام الفكر بعد الإنتاج والإبداع ، أو إذا خلا العاقل بنفسه في حديقته أو بين أولاده وزوجه وأهل بيته ، يطلق عنان النفس تلهو معهم وتلعب تداعب الطفل الصغير وتدلل الشيخ الفانى ، أو تضاحك شريكه الحياة . أما طفل أشباه الرجال فهو طفل « مدلل » أو « مدلع »

يَقْفِزُ وَيَنْطُ وَيَلْعَبُ ، وَيَعْبَثُ فِي كُلِّ حِينٍ ، شَاءَ هُوَ لِأَنَّ الْأَشْبَاهَ
أَوْ لَمْ يَشَاءُوا ، فِي عَمَلِهِمْ عِبَثٌ وَفِي عَقْلِهِمْ دَخْلٌ ، وَفِي إِدَارَتِهِمْ
شَتُونَ الْحَيَاةِ خَلَلٌ وَفِي مَشِيَّتِهِمْ حَرَكَةٌ تُشْبِهُ قَفْزَ الْوَلَدِ
وَنَطَّهُ ، وَعَدِيدُ هُوَ لِأَنَّ كَثِيرًا فِي الْأُمَمِ الَّتِي لَمْ تَبْلُغْ شَأْنَ الْحَضَارَةِ ،
أَوْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَفْتَحَ شَدَقِيهَا بِلَفْظِ الْمَدِينَةِ .

هذا الطراز من الناس في كل الأمم سر تأخرها
أو تدهورها ، طفلهم لا ينظم ، يؤدبهم ولا يؤدبونهم ،
ويتحكم فيهم ولا يحكمونهم ، ولو حملوا الألقاب وقعدوا فوق
المناصب أو بلغوا من الإثراء حدَّ الإشباع ومن الفقر حد
الإدقاع ، فإذا دحرج حظ الحياة إلى أحدهم لقباً علمياً « مثل
دكتور أو « ماجستير » أو « ليسانس » تمثله في خياله كما يتمثل
الطفل المحروم تفاحة رباحاً الجانِبِ تملأ كفه الصغير ،
فينط ويقفز ، ويعضها ويضحك لها ، ويتأملها تأمل الأبله ،
تارة يضعها في حجره ، وأخرى يرميها أرضاً ، لا يبالي أعفرت
بالتراب ، أو لوثت بالأوساخ ، فإذا فرغ من العبث بها طفق
يقضمها ، كما تقضم القوارض صغار الحشائش ، يظن هذا

المأفون أن اللقب يعطيه العقل ، ولا يظن أن العقل هو الذي يعطى الألقاب ، وعلى أساس هذا المنطق المفلوج يتصرف في شئون الحياة ، أصاب منصباً أو مغنماً ، ومثل هؤلاء لا يصيبون المغنم والمنصب إلا عند الأمم الهزيلة في حضارتها وتكوينها ، فإن أصاب المنصب أصابه شيطانان ، شيطان الحرص عليه وشيطان مركب النقص ، وفي هذا الحرص تضيع عنده مقاييس الأخلاق والمثل العليا ، لا ينظر إلا إلى نفسه ، كأن محيط الحياة خلق لشخصه ، وفي مركب النقص تطلع منه رءوس الرذائل فيمسخ نفسه ، ويغير كلامه وحركته وهندامه ، وهو لا يعلم أنه مفضوح الباطن ، وينشأ الشك في صدره والوهم في دماغه ، وهنات ما عندك من قوى الحجاج والإقناع ، وجرب ما سمحت لك التجارب أن تثنيه عن رأيه المأفون ، أو تصرفه المفلوك ، إنك لن تستطيع إلى ذلك سبيلاً ، إن أراد رغبة من رغباته طلبها ملحفاً ، وطلب لتحقيقها أن تتعدى حدود المقاييس والنظم والشرائع ، وجاء بسفسطة واهية وشعبذة يظنها في تفكيره حُججاً دامغة

وأدلة مقنعة ؛ وإن أراد رئيس منه أمراً في حدود المنطق
والمقل أطرق رأسه وهز تنفيه ، وفرك إبهامه ، وأشار
بسبابته ، وقلب كفيه وشرع يدير لسانه بين فكيه .
فإذا نطق صرّحَ عن رأى فَيَجُ أو عِنَاد يوحيه إليه مركب
النقص ؛ يظن أن هذه الحركات تظهره مظهر العاقل أو تلبسه
لباس المفكر ، طفله الكامن فيه يوجهه وهو لا يوجه طفله .

وطراز آخر من هؤلاء الأشباه يرتفع عن البله ويقرب
من الضعفاء ، يعتقد أنه تعلم وحمل الكتاب والقلم ، إلا أنه
واهن العزم مفلول الإرادة مسير في أمره غير مخير ، مثله كمثل
القرص المسجل يضعه آخر على قطب الحاكي ، فيغني بما فيه
والمحرك يرقص على نغمه ويصفق لأغانيه ، والقول الفصل
للمحرك لا للمتحرك وللباعث لا للمبعوث .

عند الفرد من هذا النوع شيء من علم الكتاب يجعله
يروح وينغدو ، يقرأ ويترجم ويتأمل ويفكر ويضع الخطة ،
ولكنه واهى القوة متردد حيران ، يقدم رجلاً ويؤخر

أخرى ، يظن كل الظن أن الخطط لا تنضج إلا إذا طال بها الزمن ، فإذا وقعت بين يديه أو أودع أمرها إليه قلبها على وجوه الرأي ، ووضعها على مكتبه ، يذهب عنها ويعود إليها محل وحده ويعقد حتى يعضل أمرها ، أو يخرجها من نطاق الإمكان إلى نطاق المستحيل ، ينسى حدة الذهن وقوة الحزم وسرعة الخاطر وإطاعة الخيال ، لا يساعده عقله أن يفهم أن الفكرة تلمع في ذهن الذكي المجرب في ثانية واحدة ولا تصل عقل النبي البليد إلا بعد أيام أو أعوام ، وهي في حدود العقل سواء أوضعت في أعوام أو لمحت في أيام .
وإن جاءت الفكرة من غريب عن بيئته بعيد عن محيطه آمنَ بها ، إيمان العجائز وتخذها آية منزلة أو شريعة محكمة مركب النقص فيه أنه يريد أن يظهر بمظهر المفكر ويتمنى أن يقدم إقدام الحازم ، وهو في كلا الأمرين متأرجح حيران وضعيف جبان .

والطراز الخطر من هؤلاء الأشباه هم المتجدلقون ،

الذين دخلوا معاهد العلم وخرجوا منها بلا علم ، يكون عرام
الطفل الكامن فيهم قويا ، وتكون لهم مراوغة الثعالب في
أفعالهم وصلافة الذئاب في أقوالهم ، إن عزموا على أمر أقدموا
عليه إقدام الذي يهاجم فريسته من نافعائه ، ويهرب إن
هوجم من قاصعائه ، يسندون ضعفهم بالملق والنفاق ، وينازلون
خصومهم بالجدل والمراء ، ويتمرغون على أقدام الأقياء ،
أظهر ما فيهم مكر باسم ، وأقوى ما عندهم دعاية صلفه ،
يرشون ويرتشون ، وَيُؤْوِلُونَ كل عمل يعملونه ولا يفسرون
كل غامض يأتيه ، يستبدلون قوى الفضيلة الكامنة بالغرائر
المجهزة بالناب والمخلب ، يأكلون أموال الناس بالباطل ،
ويجمعون لأنفسهم كما يجمع النمل غذاءه للشتاء القارص ، ذلك
لأن طفلهم لا يزال يعيش بالغريرة ويمشى بها ، ولا يثق إلا
بالتفاحة التي بيده أو اللقمة في فمه ، وإن رأى شبحا مقبلا عليه
ظنه خاطفا يخطفها من بين يديه ، فيعض عليها بالنواجذ ،
يضطرب ويخشى ، يستنجد ويستعدي ويستضري كما
تستضري غريزة الذئب ، هذه تهجم وتمزق وتلك تهدم

وتخرب ، وكلا الغريزتين تعملان عملهما لبقاء الفرد ، ولن تعيش جماعة يكون العمل فيها للأثرة والأنانية .

وطراز آخر يستر نقصه بطلاقة اللسان وحِدَّة العاطفة والاندفاع الأهوج . ولا يبالي أدمر أم عمر ، يشور كما تشور النار في الهشيم ، سرعان ما يلتهب ثم يخبو ، وفي هذا الالتهاب لا يعرف على أى شىء أتى . هؤلاء الأشباه يعيشون فى الأمم القوية على هامش الحياة ، كما تعيش ضعاف الوحوش على حواشى الغابات التى تحرسها الأسود وهم فى الأمم الهزيلة يرتعون ويلعبون ، هم أسود الغاب ، وهم الثعالب والذئاب ، هم هم سر تأخر الأمم ، أبرز غريزة فى غرائزهم « أنانية مطلقة » ، وإذا تحكمت الأنانية المطلقة فى المجتمع فقد المجتمع صفات الاجتماع ، وأصبح مثله كمثل الحشرات المختلفة الهائلة التى تعيش فى مستنقع آسن ، همها أن تشبع غريزتها إن كان لها هم .

هذا هو معنى الانحطاط وهذا هو سر تأخر الأمم .

أما كلمة الرجال فهم المتجهون إلى الذرى الذين يبدعون للحياة
كل لحظة شيئاً جديداً ، هم الذين يملون الفضيلة على الزمن ،
ويرتجلون مكونات الجيل ونظم الأمم .

هم أسود الغاب ، هم مظهر القوة ، هم أهل الإرادة التي
تخضع كل شيء لصالح المجتمع ، هم الذين تختفى الثعالب
وخشاش الوحوش من زئيرهم ، هم الذين يمشون في ظلال
الحرية ويبدعون في فضاءها المطلق ، هم الذين يقصون أجنحة
الخيال فيحوّلونه إلى حقائق تمشي على الأرض ، هؤلاء هم الذين
يسجلون اسمهم في سجل البشرية »

لايولد الرأى المنظر في ظلال الحسرة

إذا اشتجرت أشجار الغابة ، واشتبكت أغصانها ، وعفت
دروبها وأسدت مياهها ، عسر على الأرجل أن تدوسها ، وعلى
الأعين أن ترى محاسنها ، واختلط فيها فحيح الأفاعى وزئير
الوحوش بنقيق الضفادع ، وطنين الذباب والبعوض والزنابير ،
وطاردت فيها سموم الأفاعى أغاريد البلابل ، وافترست وحوش
الغاب محاسن المها ، واتقض العقبان يفتقون أعين الغزلان ،
فإذا هذبت الغابة وشذبت أغصانها ، وعبدت طرقها ، ودفنت
أسنة مياهها ، عادت جنة من جنات الدنيا ، تلذ الأعين فيها
وتصغى الآذان إلى أغانيها ، وتجوس الأرجل خلال دروبها ،
ويختفى الوحش الكاسر ، ويأمن الطير الجميل .
وهكذا الأمم مثلها كمثل مشاهد الطبيعة حذوك القذة
بالقذة ، فالأمة المهملة الضعيفة تشتبك أمورها وأحوالها ،

وتتضارب نظمها ونواميسها فتعملو الثرثرة على الوعظ ، والسفاهة
على الحكمة ، والصلافة على الأدب ، ويأخذ الصلف القوى
منزلة العاقل الهادى ، والثرثار الهذر مكانة الخطيب اللسن ،
والدجال المشعوذ مكانة الأستاذ العالم والمُتَنَفِّجُ المحرور
مكانة المتواضع الحليم ، فيهبط مقياس النفوس ؛ وإذا هبط
مقياس النفوس ضعفت قوة العقل فى التحكيم ؛ وضافت
الصدور وطلعت رءوس التهم كأنها رءوس الشياطين ،
فإذا قال رجل : ارحموا فقيراً يأكل الفقر أجسام أطفاله .
أو أصلحوا حالة فلاح أو أشيعوا العدل بينكم تناهتته العيون ،
وأشارت إليه بالأف كف الأصابع ، وسلقته الألسن الحداد .
وقالوا عنه : هذا مارق وإن قال رجل : يا قوم استثمروا قوى
الشباب وقوى الطبيعة ، قالوا : هذا متحكم خذوه فغلوه
ثم الجحيم صلوه .

وإذا وعظ مرشد فقال : يا قوم إنكم على ضلال وبدع
شوهت محاسن دينكم ، قالوا : إنك أنت المبتدع الخارجى ،
إنك تريد أن تخرجنا عما كان يعبد آباؤنا من قبل ، وهَكَذَا

تَشِيْعُ التُّهْمَ إِذَا ضَعُفَتِ النُّفُوسُ وَتَبْدَلُ الْحَقَائِقُ إِذَا
ذَلَّتِ الرُّؤُوسُ .

إن الحقائق تتضح إذا اتسع أفق التفكير وإذا طفق العقل يرتب أفكاره ترتيب المناطقة ، ويستنتج أحكامه استنتاج الحكماء ، عند ذلك يعلم القوم أن الرجل لا يهون عليه أن يبدل تقاليدته وماآثره بجرة قلم ، ولكن الجوع كافرٌ والفقر وحشٌ ضارٌ ، والجور ظلامٌ حالكٌ . كل أولئك تسد على المرء منافذ التفكير ، وتأخذ عليه سبل الخروج من الأزمات ، فيهون عليه التخلي عن حياته وعن أعلى ما عنده إذا رأى طفله يفترس الجوع محاسنه ، ويصبغ وجنتيه الورديتين بالورس ، ثم يراه عرياناً يقضض البرد أضلاعه الرخصة ، أو تلقح الشمس نواعم أطرافه ، ويبلغ اليأس في الرجل مبلغه إذا علم أن موته سيبدد أفراد أسرته عبأيداً .

إن الرعاية والعدل يضمنان بقاء تقاليد الأمة وماآثرها ،

فإذا نظمت الرعاية وشرعت لها النظم جاء العدل ، وإذا جاء
العدل حكمت الطمأنينة ، وإذا حكمت الطمأنينة تحصنت
التقاليد ، وعُض عليها بالنواجذ ، وإذا تحصنت التقاليد برزت
خصائص الأمة . وإذا برزت خصائص الأمة اعتزت الأمة
بكرامتها فيعم الأمن والإخاء ، وتنطلق الأنفس من عقابها
تفتش عن مناطق السعادة ، فإذا وقعت عليها تفتحت الأسارير
بالسرور ، ونشطت العقول والأجسام للابداع .

هكذا قطعت سويسرة والسويد وغيرهما من الأمم الحية
دابر التهم ، ورعت الشعب رعاية ملؤها العدل ، وطقق
المسؤولون يفتشون عن مواطن السعادة والعيشة الراضية
يرضون بها نفوس الأمة . فبدأوا عملهم من الأسرة التي هي
نواة الشعب ، ثم الفرد الذي هو عضو في هذه الأسرة ،
ورافقوه في طفولته وشبابه وشيخوخته ، في يُمِّه وفتراه
وغناه ، في صحته ومرضه ، يأخذون منه في غناه ، ويعطونه
في حالة الفقر ، يستثمرون قواه ، ويقوون ضعفه ، لهم هو وهم له .

الإنسانية أولى مبادئهم والوطنية تاج هذه الإنسانية .
فالسويسريون كلهم سواء أمام القانون ، لا يعرفون أكرثية
ولا أقلية ، ولا طبقة ثرية أو طبقة فقيرة ، عمروا الأرض
فاستغل الشعب بأمواله هذا التعمير ، وتمتع بجماله ففاض
شعور الحب للبلاد والتقاليد والعادات ، ووضعوا نظم
الاجتماع التي تحرس هذا الشعور وتقوى أركانه . يُغْمِرُونَ
الأمم بزيارة ديارهم ، ويفتحون مبطون الحياة والنظم لهم ،
فياخذهم العَجَبُ ويتهافتون على بلادهم تهافت القطا على غدِير
الماء في لهيب الهَجِير .

بَسَطَ العَدْلُ رِوَاقَهُ فانبسطت النفوس ، وملاً الشعور
مجامع القلوب فاحتضن القوم تقاليدهم وآثارهم احتضان القطا
أفراخه ، وحدبوا على وحدة شعورهم حذب الأم الرؤم ، فأين
تنبت الشيوعية أو تنمو النازية ؟؟ .

إن النفوس القوية والعقول الجبارة تَقْتُلُ التَّهْمَ وتقبل
النقدَ تعليماً والتفريعَ وعظاً ، وبين التعليم والوعظ من جهة
وبين التهم من جهة أخرى ، بَوْنٌ بعيد ، هو الفارق بين .

الأمة الناضجة والأمة الناشئة .

وإذا حل النقد محل الوعظ والدلالة وماتت رءوس التهم
انبسط رُواقُ الحرية ، فتمرح النفوس وتشتبك الآراء ،
فيغلب الرأيُ الناضج الرأيَ الضعيفَ ، وتأخذ الحياة الاجتماعية
مجرأها كما يجري النهر الهادى ، تنبسط عليه نَسَمَاتُ الريح ؛
وهنا موطن سعادة الأمة ، هنا تحتفظ الأمة بتقاليدها ، وتعص
على دينها ومبادئها بالنواجذ ، ويصبح لها أسلوب في الحياة
تتماز به عن بقية الأمم .

هكذا هي الأمة السويسرية ومثلها الأمة السويدية
والنرويجية ، لها أسلوبها في الحياة ، ولها نظمها ، ولها تقاليدها
التي تغبطها عليها الأمم . . .

أمة نيشدا كهرية

مثل الذكرى في تواريخ الأمم كمثل الربيع للأرض ،
هذه ينزل عليها الغيث قهتزو وتربو وتُنبت من كل زوج ،
بهيج وتلك تعرض مشاهد الوقائع آخذا بعضها برقاب بعض ،
مجدا بعد مجد ، وشهيدا مضمخا بالنجيع إثر بطل مجدل ،
وعبقريا مبدعا بعد عبقري منشيء ، فتنتفض النفوس ويتجدد
ربيع الحياة ، ويتفتق ذهن البليل الخاضر لإتمام مآثر الجيل الغابر
وتقف كتائب الأمة خاشعة الطرف قريرة اذنين إجلالا
وابتهاجا ، تتأمل صحائف الماضين ، وتتخذ من عبره ا معاير
للحياة ومثلا لتربية الأجيال .

هذه من معاني الذكرى عند الأمم وذاكرانا مثل ذكراها .

تنفذ قطرات الغيث في مسارب الأرض ، فيجتمع

بعضها إلى بعض ويزحم بعضها بعضا ، فتضيق بطن الأرض
بها ذرعا ، وتشقق عنها سراعا ، وتنبثق عيوننا وينابيع تجري
ماء نيرا .

وتختلط ذرات المعادن الملتهبة والأحجار المتنافرة في
جوف الأرض ، فتنفجر براكين تلمس أرجاء الفضاء .
وهكذا الأمم ترتبك أحوالها ، وتشتبك نُظُمُها ،
وتُطْمَسُ معالم قوانينها ، فتصطرع أفواج الحق وكتائب
الباطل بين يدي الجبارة الأغبياء والعبارة المبدعين فينتفص
جسم الأمة يصرخ بالثورة ، ويدعو إلى الانقلاب يَتَمَسُّ
فضاء الحرية وإرادة الحق المطلق والعدل السوى .

هذا هو معنى الثورة ومعنى الانقلاب ، وهذا هو ما يريد
عبارة الأمم وأبطالها في إصلاحهم الثائر أو المسالم .
وهذا ما أراده لنا الفريق الأول من الشهداء والصديقين
حين بعثوها لتهيئة جيل وتكوين حضارة ، وإيجاد شعب
ووضع نظم ، وتحصين هذا الوطن المتراعى الأطراف لترفرق
الحرية فوق سمائه ، ويرافق هذه الحرية التنظيم والعدل اللذان

هما أساس السلطان العظيم .

نشبت الحرب العالمية الأولى ، والعالم يموج بالتنافس والتكاثُر والدس والكيد واشتباك المصالح ، فوقعت الواقعة ودارت رخي تلك المعركة الهائلة لتطهير العالم .

كان أحد أقران هذا الصراع الكيالية العليا ، وقرنها الثاني المادية الصناعية ، ولكن الكيالية بقيت أجبولة يتخذها الخصمان معاً مبدأ لهذا الصراع .

فنادى أصحاب الكيالية أصحاب الحق المهضوم : أن العالم يتمخض عن مولود جديد ، لتنشئة جيل جديد وحضارة ممتازة وذلك المولود هو : تقرير الشعوب لمصائرهما بنفسها .

مشت هذه الكيالية الخادعة إلى ميادين المعارك — وتكثبت معها كتائب الأمم الطامحة إلى الكرامة ، فسالت بطاح الأرض بالدماء ، وخرت الجبارة من عروشها واندثرت معالم أمم ، وظهرت معالم أخرى ، فطفقت المادية تخلع أثواب الكيالية المعارة ثوبا بعد ثوب ، وبرزت للعالم

بروز أنياب الوحوش الكاسرة وضمرد ذلك الجنين الذي أراد أن يولد، وَعَادَ « تقريرُ مصير الشعوب بنفسها » إلى أيدي الجبابرة الطغاة وصار الحق نهبا مقسما ، والعدل رسما عافيا ،

أرادت الطليعة الأولى أن تبعث لنا من هذه الثورة وطنا حراً محصن الثغور من هذه البقعة في الشرق الآسيوي الأدنى ، فقم العهد بيننا وبين أولى القوة ، ولكن الكمالية المعارة كانت تعبت كما تعبت الثعالب ، وتضع الخطة التي تريدها حتى تم لها مشروع سايكس - بيكوت عام ١٩١٦^(١) ؛ فكانت هذه الخطة بدء المشكلات ، وأساس انتصار المادية الصناعية ، والتعبئة الأولى للقضاء على الكمالية التي كان « ولسن » يدعو لها .

ومنذ ذلك العهد أخذت الفكرة التي وضعها الرعيل الأول تتأرجح بين المطامع والمصالح ، وتأتى الذكرى تلو الذكرى فتلهب النفوس وتتململ الأجسام ويُعان العيد ،

(١) إشارة إلى تقسيم البلاد العربية التي تحررت من الدولة العثمانية .

وَتُحَبَّرُ الْمَقَالَاتُ وَيُكْتَبُ الْاِحْتِجَاجُ وَيَقَعُ الْاِضْطِرَابُ .
وكل هذا نوع من أنواع الدفاع لإرضاء الغريزة التي يشبه
إرضاءها ما عند ضعاف الدوارج وبنغاث الطير ، تهدأ الغريزة
عند هذه الكائنات ، إذا أدت أول فعلها الانعكاسي ،
وهو منتهى ما تقوم به من الدفاع للبقاء .

كذلك تحمد جذوة نفوس الأمم التي لا تقرن القول
بالفعل بعد ارفضاض الجمع بدقائق معدودات ، كان لم يحدث
شيء وكأن ماء الشطين^(١) قد صبَّ على القلوب فعادت باردة
لا حراك بها ، غير أنها تنتظر وتتمنى على الله الأمانى ، وتريد
ولا تفعل ، وتطلب الحياة العزيزة سهلة سائغة لا كد فيها
ولا نصب ، وهذا طلب المحال فإنَّ المستجدي لا ينال إلا
فُتَاتَ الْمَوَائِدِ وَفَضَلَاتِ الْأَقْوِيَاءِ .

إن هذا الخصم^(٢) العنيد الذي نقف أمامه لا يفهم المنطق
ولكنه يعرف أن الحق يناله من يفهم الحديد ، ونحن أمة

(١) دجلة والفرات .

(٢) الغرب المستعمر .

لم تعرف بأس هذا المعدن بعد ، وليس لنا قوة وبأس إلا قوة الحق ، وهى قوة تحوات من أدمغة المشرعين وأعماق الضمائر العادلة ، إلى أدمغة مخترعى الذرة وطغاة الأمم ، الذين دفنوا ضمائرهم فى خنادق مصالحهم ، وأصبحوا لا يباليون أن يضحوا بالعالم أجمع فى سبيل بقاء بلادهم واتساع أسواقهم ، ولا يهتمون أن يخرجوا أمة جمعاء من ديارها ، ويأتوا بشذاذ الآفاق ليحلوهم محلها ، لا يسمعون ثغاء الطفل الرضيع ، ولا يراعون ضعف العجوز المزمين إذا نام فى العراء وتناهبته يد الطبيعة القاسية فى حرها وبردها ، وأطبق عليه الجوع الكافر بأنيابه ومخالبه .

هاهى ذه ذكرى التاسع من شهر شعبان^(١) ، والوعى السياسى العربى حائر يقرب طرفه بين سمع الأرض وبصر السماء ، يتلمس حلا لهذه المعضلة الكأداء ، ويفتش عن منقذ من هذه الاستراتيجية المفتعلة التى تفتح ثغرة فى قواعد هذا البناء المحكم الذى أراد له لنا الشهداء والصديقون من الطليعة الأولى ،

(١) بدء الثورة العربية .

الذين تحيي فيهم هذه الذكرى .

كتب السابقون الأولون هذه الذكرى بالدم ، وأخذنا
نستقبلها عاماً بعد عام بالقول .

ومن طبائع الأمم الحية أن تأخذ أمجاد أوائها فتبنى مثل
ما بنوا ، وتفعل فوق ما فعلوا ، ولكننا أخذنا زبد الحياة
فذهب جُفاء ، وأخذ الخِصمُ ما يملك في الأرض وينفع ،
فشرع ينظم خطط التعمير فسبق وتخلفنا ، وأخذنا ننظر إلى
ما يفعل الخِصم نظر المغشى عليه من الموت .

إن الوعي السياسى فى هذا الشرق الأدنى وعى ناضج
ولكن وعى التعمير والاستثمار والتكوين الاجتماعى لا يزال
فى المؤخرة من قوافل الأمم .

إن هذه الذكرى ربيع فى حياة جيلنا هذا ، ولن يزهر
نبت الربيع إلا إذا نضج وعى الاستثمار ووعى التكوين
الاجتماعى فى هذا الشرق الأدنى ، ولن تبدو تباشير هذا الوعي

إلا إذا بعثناها حضارةً جديدةً ، مؤسسة على قواعد التشريع الإلهي الذي يضمن العدل الاجتماعي ، وتكوين هذه الحضارة منوط في نشر ثقافة عامة تضم أمجاد الأمة وآثارها ، في ماضيها وحاضرها ، وتجعل منها أمةً في شعور موحد ، تظهر به قيمة الفرد في عين المجتمع ، ومكانة المجتمع في عين الفرد .

إن ثقافتنا التي تَبْنِي حضارة جيلنا يجب أن تأخذ ناحية التكوين المتصل بالفرد ، فتضعها إلى جميع نواحي حياته الأخرى ، ومعنى ذلك أن تجمع إلى إيجاد الفكر المبدع تنظيمًا شاملاً ، يُسهِّلُ على هذا الفكر ابتكاره وإيجاده .

إن القول الفصل لتكوين هذه الحضارة يكون في أركانها العامة التي تتمثل في العلم المتقن المبحوث المدلل ، والفن الرفيع والشعر المصور والنشريع العادل ، في تكوين الدولة ، وتوجيه هذه الأركان توجيهاً يظهر فيه أثر المهارة ، عند ذلك تظهر قوة الشعب التي تفرض على الأمم والشعوب احترام الأمة .
هذه هي ثمرة ربيع الذكرى ، وهذه هي التي تفرضها

طبيعة الأمم التي توجد الحياة

إننا في زمن تَسْكَالِبُ فيه الأمم على النقط « الاستراتيجية »
وتتداعى على اغتنام الوَقُود والمواد الأولية ، وتشتبك مصالحها
ومطامعها ، ولن نقف أمام اصطخاب هذه الأمواج إلا إذا
كانت ثقافتنا ثقافتهم ، وعلمنا مثل علمهم ، ووسائلنا مثل
وسائلهم ، وزعامتنا زعامة فعل لا زعامة شعوذة ودعاية وأقوال .
المجد .. المجد ! ! ! إرْكِنُوا إلى التنظيم ، فإن التنظيم
رُكْنُ الإبداع ، لا تَرْكِنُوا إلى الفوضى ، فترتبك أموركم ،
وتشتبك سبلكم ، اقطفوا ثمار المجد في توحيد صفوفكم ،
واعلموا أن كل خُطوة في التنظيم طعنةٌ نجلاء في كبد الخصم .
إن الغرب يعبئ تعبئة صامته هادئة ، وهو يرمى إليكم
كل يوم بأفواجه وأرتاله ، ليستثمر كنوزكم ، ويعبد متون
سبلكم ، ويسد ثغوركم ، ويضع كل لحظة حلقة في سلسلة
الاستعباد ، ليسد عليكم منافذ الحرية العامة ، فإن كل ابتداع
واختراع في مواطن العلم والفن كسر غلٍ من أغلال الاستعباد

ولفظ رتل من أرتال الطامعين إلى وراء البحار ، وركن من
أركان الاستقلال الذاتى ، وارتفاع عن الحاجة إلى الخضم .

ضعوا كل يوم أو كل عام لبنّةً فى صرح التنظيم الاقتصادى
والتنظيم الاجتماعى والتنظيم السياسى ، فإنكم بعد أعوام
تبدءون تملون على الزمن أن يغير اتجاهه ؛ ويبدأ يسجل
لكم لا عليكم .

في ظلال الحُرِّيَّة تبتسم أعياد الأمم

يُسْفِرُ صباح العيد فيبتسم ثغر ، ويتهيج قلب ، وتدمع
عين ، وتوصل قَطِيعَة ، وتنسى الأحقاد ، وتدفن الضغائن ،
ويشعر المؤمن بالفوز ، والطفل اللاهي بالسرور .

يسفر صباح العيد فيشيع السرور في بيت ، ويمتلىء حُبُوراً
ويبتسم شمل الأطفال والأسرة حول عميدهم ، يرفلون بِحُملِهِمْ
وَأُرْدِيَتِهِمْ ، يتبادلون الهدايا بينهم ، ويستقبلونها من آباءهم
وذويهم باسمين مشرقين ، ومهنتين مستبشرين .

يسفر صباح العيد ، فيمتلىء بيت حزناً وكمداً ، ويشبع
في جوانبه ألم ممض وذل وانكسار ، لا أب يبتسم ، ولا أم
تفرح ، ولا حلة بهيجة ، ولا لعبة مسرة .. أيها العيد المسفر !
أنت جمع الآلام والأفراح ، ومظهر القوة والضعف ، والعسر
واليسر ، فيك تبتهج الأم التي تحتضنك ، لأن فيك مظهر

عظمتها ، ومعرض حضارتها وثقافتها فأنت للأُم في ابتهاجها
وسرورها ، وحزنها وكدها مثلك للأسرة .

أيها الصباح المسفر ، لقد كنت فيما مضى تنبليج عن شبان
أمتنا في ميادين المجد ، يقتحمون الجبال ، ويستعذبون الأهوال ،
ويخوضون البحار ، ويطوون القفار وراء غاية سامية وعمل
مجيد تلك هي نشر العدل والإخاء وإشاعة الحرية بين الناس ،
وكنت تنبليج عن قلوب مطمئنة بالإيمان ، والثقة بالعميدة ،
متحدة في الغاية ، مشبوبة بالفداء .

كنت تسفر عن فتیان قريش والأنصار على روابي
الأندلس الجميلة ، وسهول الصين ، فتبتسم لمقدمك الثغور ،
وتنبعث من نسيمك تحيات الفوز إلى الأب الضعيف ، والأم
الحنون ، والزوجة المخاصة المنتظرة ، والأخت المهیضة ، والطفل
الصغير ، كنت تفتح لآبتي الظلام عن هذه القلوب المتحددة
المؤمنة في أن البقاء في الفناء ، والحياة في الموت ، والسعادة بالبلاء .
أيها العيد ! كنت تنصل خضاب الليل عن شبان يشيعون
الفضيلة ، ويشيعون نور اليقين ، ويبيعون أرواحهم وأمواهم

في مرضاة الله، وسبيل الأمة، واطمئنان الضمير، ليعثوا السلم
في العالم، والاطمئنان إلى القلوب، ويدكوا معالم الظلم، ويدلوا
نواصي الطغاة .

عن أي شيء تسفر اليوم؟؟ ..

إنك تسفر عن وشائج متقطعة، وقلوب متنافرة، وبيت
كسير، وأسرة مفككة.

أيها العيد أشعر قلوب هؤلاء الناس أنك تعود كل عام،
لمعنى فيك سام.. إن فيك معنى الوحدة، وضم الشمل والعطف
والأخوة، وإنك مبتسم بتسم لك الثغور، وتنشرح فيك
الصدور .

أشعر الأم الفقيرة في بيتها أن لا تذرف دمعة أمام طفلها
الغض، لأن البكاء يشيع في النفس الحزن، والحزن مجلبة
اليأس، واليأس إذا دخل القلوب أماتها. وأشعر الأم الغنية
ألا تمشى أمام طفلها مرحة، فتشعره أنها تريد أن تحرق
الأرض أو تبلغ الجبال طولاً! فإن المرح والاختيال يبعثان
في نفس الطفل الكبرياء، والكبرياء إذا دخلت النفوس

أماتت فيها مواهب الإبداع ، وأغلقت فيها أبواب الرحمة .
أشعر الموسرين الأثرياء ، أن السعادة ليست في أكلي سمين
وفراش وثير ، وحلل فاخرة ، بل إن السعادة كل السعادة
في تفريج كربة مكروب ، وإطعام جائع ، وكسوة عار ، وإعانة
محروم ، وتمزية محزون كئيب .

أشعر الوالد الحنون ، أن الأبوة أن ينظر الوالد إلى اليتيم
الباكي المحدود ، مثل ما ينظر إلى ولده الباسم المحدود .

أيها العيد أشعر فتياتنا وفتياتنا أنهم أملُ الزمان الباسم
وأنهم ينبوع الحياة ، وأن هذا ينبوع لا يتدفق سلسلا
إلا إذا كان صافيا كالماء النير ، وأن هذا الصفاء لن يتم إلا
في اكتمال الخلق وصفاء الطبع ، والبحث وراء الحقائق ،
والمشي سريعا بأقدام ثابتة ، والظما الدائم لليقين ، والاستقرار
والاندفاع وراء إيجاد قواعد اجتماعية صحيحة ، ونظريات واضحة
لا غبار عليها ، منها تتكون نظم الأمة وتتأصل شرائعها .

أشعرهم أن يستقبلوا الحياة بالأمل الباسم المنتظر ، وأفهمهم
أن هذا الأمل لن يتحقق إلا إذا مرحت النفوس في فضاء

الحرية الواسع ، وأن مهر الحرية هذه إيثار وإخاء وتضامن .
أشعرهم أن الشباب مزرعة الإرادة ، وأن نمو الإرادة في
الإيثار ، وأن الإيثار يخفق القلب الكبير ، وأن القلب
الكبير عرينُ الإرادة الصلبة ، وأن الإرادة الصلبة هي التي
تبدع . إن إبداع الأجيال من واجبات الشباب ، فأشعرهم
بهذه الواجبات دعهم ينبشوا في مجتمعهم يدرسونه ، ويبحثون
عن أدوائه ، فقد أئخنته الجراح ، إنه فقير عاجز ، إنه أحمى
جاهل ، إنه مريض مضنى ، إنه مبعثر مفكك ، لا أمل له ،
فهم أملة ، ولا سند له ، فهم سناده وعماده .

أفهمهم أن ينظروا إلى الأفق الواسع للأمم ذوات
الحضارة كيف تفعل سواعد الشواب والشبان في حماية
ثغورها ، وكيف تبدع عقول الفتيات والفتيان في تقدم علومها
وارتقاء عقلها ، وكيف يندفع الشواب والشبان في توسيع
صناعاتها وبناء مختبراتها ، ورفع مداخن صناعاتها .

أفهم الشباب أن من أول واجباتنا أن نحمل ثقافتنا
وحضارتنا ، وأن نتخذ من هذه الثقافة والحضارة قواعد

للبنيان القوى الذى نكونه من عقل الجيل الجديد ، ومن ثقافات الأمم وحضارتها .

أيها العيد إنك عند الأمم المتحضرة مَلَكٌ تحمل على جناحك الأيمن الفضيلة ، وعلى جناحك الأيسر السرور ، وأن هذه الأمم لن تستقبل فضيلتك ، ولن تتمتع بسرورك إلا إذا تمت لها هبة الإرادة العليا التى وهبتها الإنسانية الكاملة : حريةُ الرأى والتفكير ، وحريةُ الضمير ، وهاتان هما اللتان يرتكز عليهما إنتاج الكتاب ، وبحث العلماء وخيال الشعراء ، وتفكير الفلاسفة ، وهما كل الكل فى وضع قواعد الاجتماع ، وأسس التشريع للأمة . وهما الكل فى اجْتِثَاتِ أصول الخرافة ، واستئصال أدغال الشعوذة ، هما اللتان تفضحان الخُبثَ والخديعة .

حرية الرأى والتفكير تفتحان للأمة أبواب العزة والكرامة والقوة ، أشعر الشواب والشبان أن تكون تعبئتهما تعبئة تحرس هاتين القاعدتين .

وبعد .. أيها العيد أشعر الناس أنك لم تأت لتَعْمُرْ

بيوت الحجر والميسر ، ثم أخبرهم أن الأمم باخلق المتين ، والعقل
الراجح ، والجسم القوى ، والروح الوثابة ، وأشعر الناس أنك
تعود في كل عام لتجدد مكارم الأخلاق ، وتشد أزر الإخاء ،
وتبعث روح التضامن ، وتجتث خبث الضغائن ، وتملأ
الأرواح بالسرور والهناء .

المحن تبعث الحُرِّيَّة

إذا اذْهَمَّتْ الخطوب برزت كوا من المواهب ، تجمع
القوى وتعد الوثبة ، وتتربص بالزمن لتشق حجب الظلام ،
وتفتح نوافذ النور لترى البصيرة ، ويبدع العقل في خط
الخطط ، وتعبئة الوسيلة ، والخروج من شدائد الأزمات

والمحن مثلها كمثل النار ، هذه تخرج الذهب الإبريز من
الخبث ، وتلك تشحذ العقول وتنبه الغرائز ، وإذا انتبهت
العقول استطاعت أن تضع يدها على مواطن الخطر ومكامن
الداء ، وكمين الأعداء . هذه هي صفات النفوس الكبيرة ،
ذات المروءة والشجاعة والطموح ، إلى الحرية الحمراء . أما
النفوس الصغيرة ، فيسيل دمها على خدودها ، وتشق جيوبها
وتحسب الانتفاضة العجلى نجدة كبرى ، والصرخة الذاهبة
في الريح استغاثة مثلى ، والتفضل بالفلس الصغير دعوة الجفلى !

كلا..؟ كلا..! لن يكسر أغلال فلسطين دمة منحدره
وجيب مشقوق ، وصوت حزين منكسر من تداعى الأمم ،
واصطلاح الأهواء والنظم ، وبرز أنياب المحن !
والقول الفصلُ اليومَ للعقل المبدع ، والقلب الجريء ،
والصبر الصادق ، والثبات الموطد ، والإخلاص النزيه ،
والخروج عن المال والروح والولد . فإن الخطر الداهم وباء منتشر
في ليل أسود حالك الإهاب ، وطمع لا تقفه حدود ولا تصده
سدود ، وحلم صهيوني سادر ، تنبه على أجراس هذه المدنية
الحاضرة ، بعد أن كاد يقضى عليه جبارة الشرق والغرب ،
وكادوا يخنقونه في المهدي .

برز الآن يتهادى مكشر الأنياب ، تسنده الدبابات
والحراب ، ويمده الكيد الصهيوني والمال الأمريكى ، يتحدى
دين محمد ، وسيف صلاح الدين ، ونجدة المعتمم ، ويمد أطرافه
وأذنا به مدًّا الأخطبوط زوائده ، ليضع روحنا و ثروتنا وكنوزنا
في أرضنا وهوائنا في جُماع قبضته ، وَيُسَخِّرُ عَضَلَنَا وَعُقُولَنَا
لدماعه الماكر .

هذه خطط الصهاينة العاتية ، ان تفلها إلا خطط عاتية -
مثلها ، وسلاح ما كر أشد من مكرهم ، وتعبئة منظمة أرضن
من تعبئتهم .

التعبئة ، التعبئة ، في البيت والمدرسة ، والمسجد الجامع ،
والميدان الفسيح ، والشارع المزدحم .

والذكرى ، الذكرى ، في تجسيم خطر الصهيونية الهاجم
لاقتطاع قوتنا من أفواهنا ، وساب حریتنا في تنسم هواء
فضائنا ؛ فإننا أمام قوم قساة ، يقطعون ثدى البكر بدل
الدرهم ، ويحرقون الحرث والنسل في سبيل الفلس .

أفسدوا الغرب بأعشاشهم ومنظمتهم ، واستولوا على
مصانعه ومعامله ، وصحفه ودرابين محاميه ، وعيادات أطبائه ،
لا تصعب عليهم وسيلة في الوصول إلى النهاية ، ولا تبعد
نهاية تريد وسيلة .

يريدون أن يُطمسوا معالم الشرق الأدنى وحضارته ،
ويعيدوا جن سليمان وعفرارته ، وتكون لهم اليد العليا ولبقيتنا
اليد السفلى . !

اشترُوا أرضَ المعراج بالذهب الأصفر والكيِّد الصامت
والدعاية المستترة ، ولن يعيد هذه الصفقة إلا الأصفر
الوهاج ، والتنظيم الصامت ، والدعاية السافرة . والأصفر
الوهاج عند ذوى الثراء والإقطاع ، الزاحف هذا الخطر على
ثرائهم وإقطاعهم .

والتنظيم الصامت عند ذوى العقول والثقافة ، الذين
سَدَّتْ عِبْدُ عَقُولِهِمْ وَثِقَاتِهِمْ والدعاية السافر عند أهل الفصاحة
والبيان ، الذين سوف تكلم أفواههم وتحطم أقلامهم .

ولن تنفع العبد الثرى ثروة ، وإقطاع ، ولن يفيد المثقف
عقلٌ مسجونٌ ، ولن يُسْعِفَ اللِّسَنَ قَلَمٌ محطمٌ .

إننا نريد أن نخنق هذا الخطر الوليد فى مهده ، قبل أن
يستوى على سداقه لنحفظ حريتنا و ثروتنا وأقلامنا .

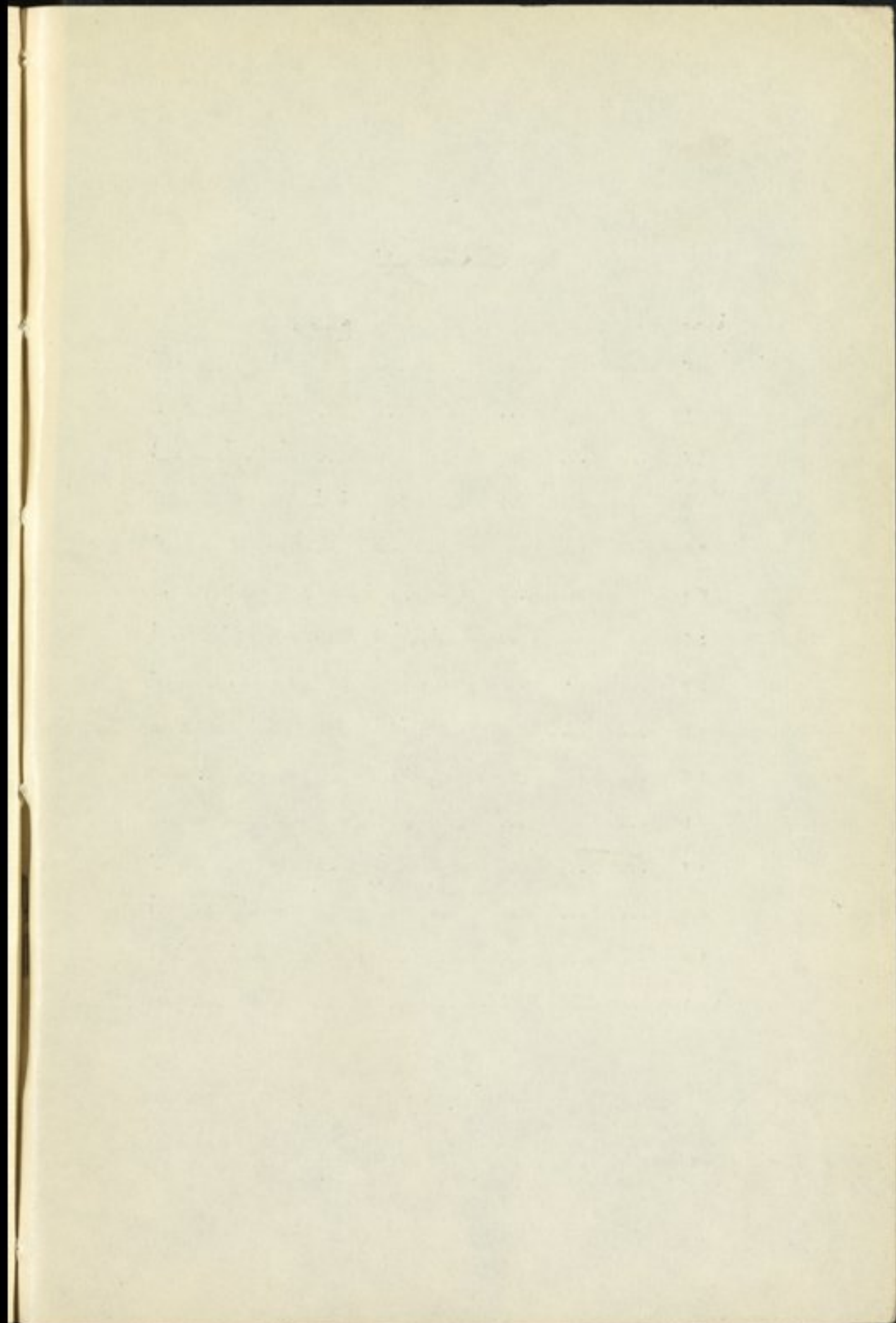
العَجَل ، العَجَل ! ، التنظيم ، التنظيم ! ، الدرهم ،
الدرهم ! ، والإخلاص ، الإخلاص ! ، الثبات ، الثبات ! . .
فإنه لا يحتمل الوقت التوانى ، ولا ينفع درهم بلا تنظيم ،
ولا إخلاص بلا ثبات ، ولا ينفع زحف بلا تعبئة .

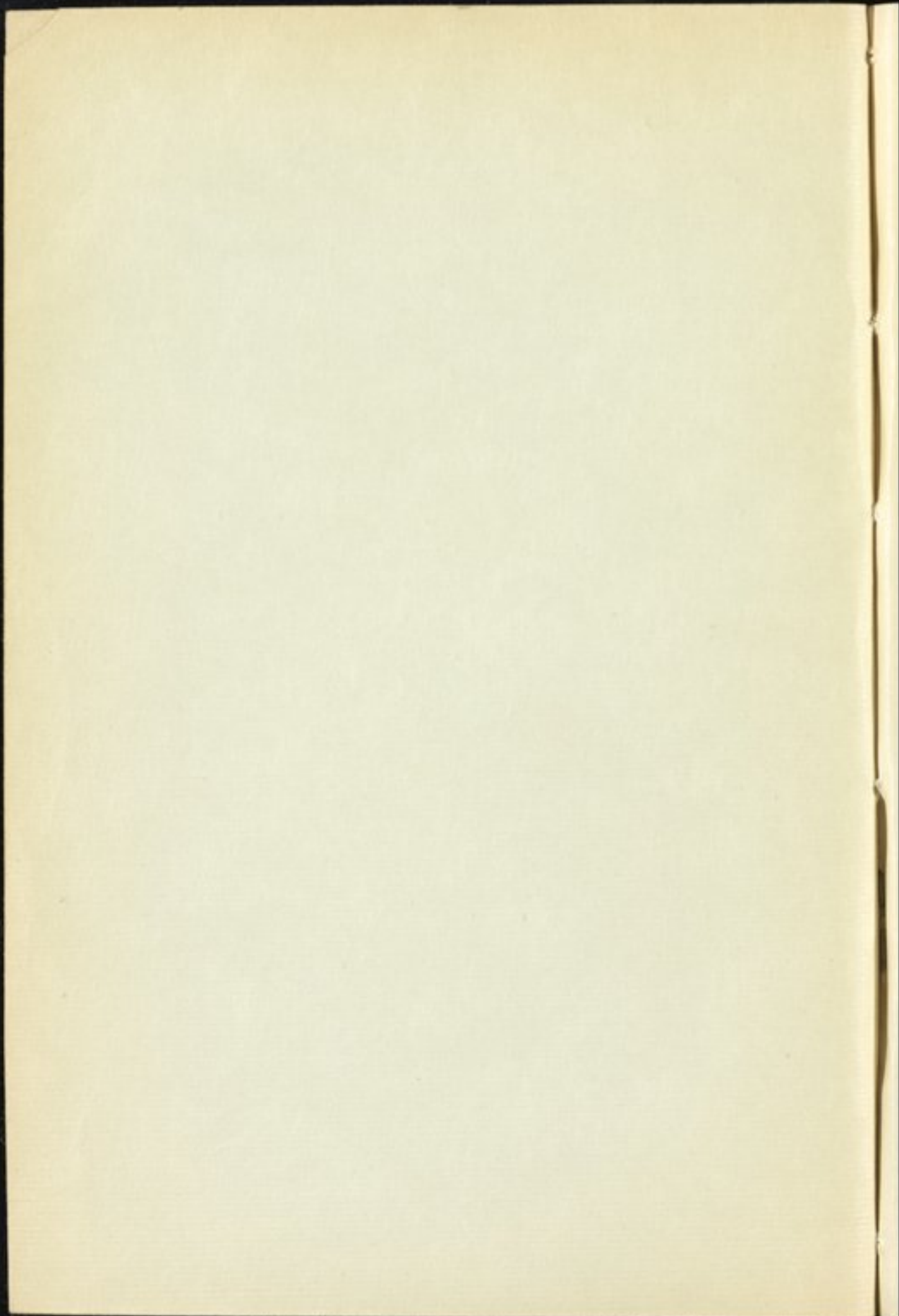
ولا بد من الزحف ولو بالسيف والخنجر ، فإننا إن صدقنا
الوعد بالمقاطعة أهلكتناهم جوعاً في عامين .
وإن صدقنا الزحف أمتناهم في يومين .

Handwritten text in Arabic script, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher but appears to be a list or a set of instructions.

فهرست

صفحة	الموضوع
٣	كلمة
٧	حريتنا
١٢	لسنا صيداً مباحاً
١٨	محمد (ص) يعلمنا الحرية
٢٨	محمد (ص) يعظم أصنام الاستعباد
٣٥	الحرية والإبداع (بين الشرق والغرب)
٤٣	أزمة الحكم (في ظلال الحرية وكهوف العبودية)
٤٧	توزيع الثروة - بين يدى الحرية والعدل
٥٧	عراك الأحزاب في ظلال الحرية
٦٣	الجامعات الحرة تخلق الرجال وتنقى الأجيال
٧٤	العبودية تخلق أشباه الرجال
٨٢	لا يولد الرأى المتطرف في ظلال الحرية
٨٨	أمة تنشأ الحرية
٩٧	في ظلال الحرية تبث أعياد الأمم
١٠٤	الحزن تبث الحرية

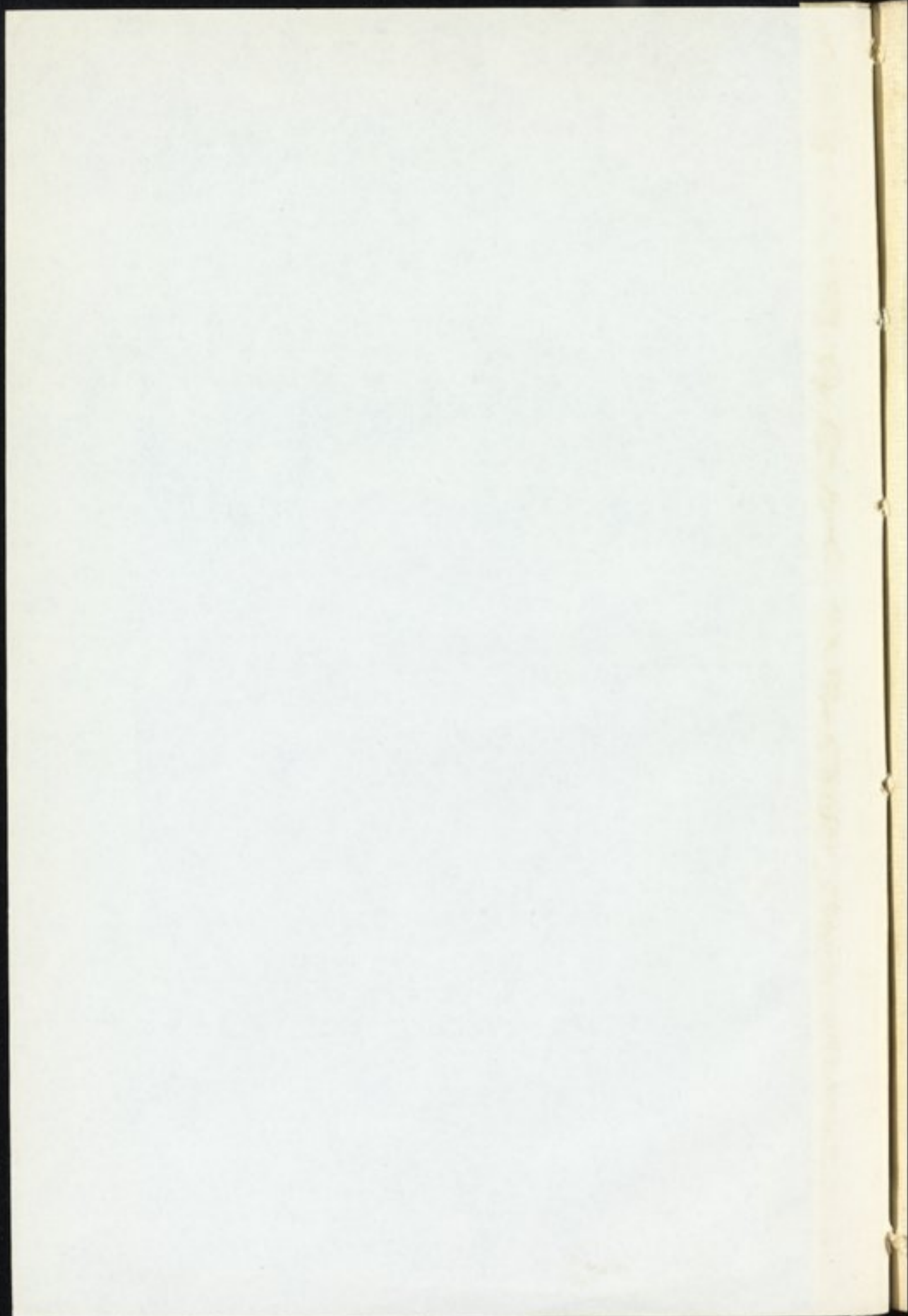


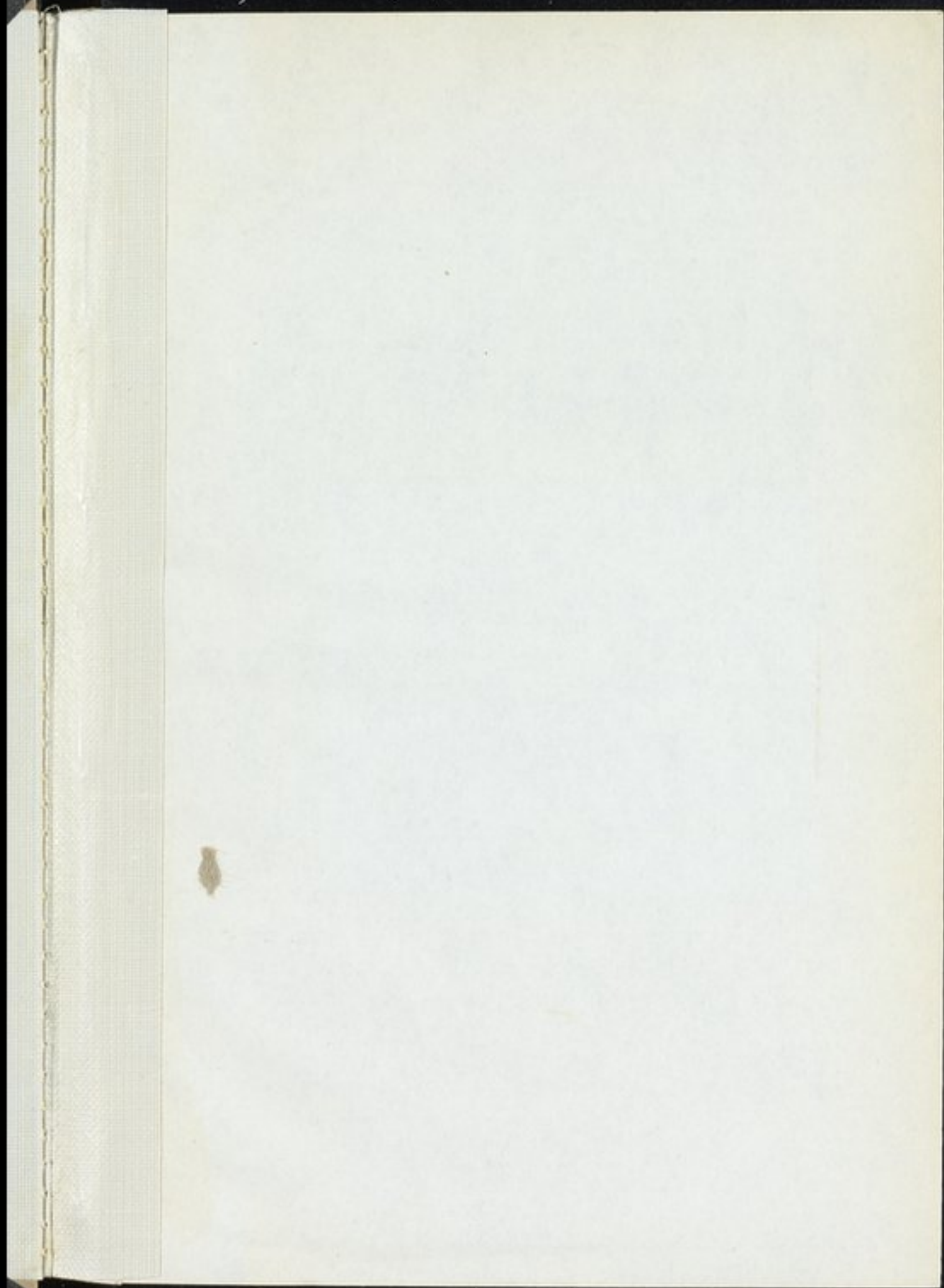




شارع فاروق خلف ٢١ - القاهرة

ت ٥٠٩٣٨







PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS



Princeton University Library



32101 074331826

2